من أبطال الإسلام

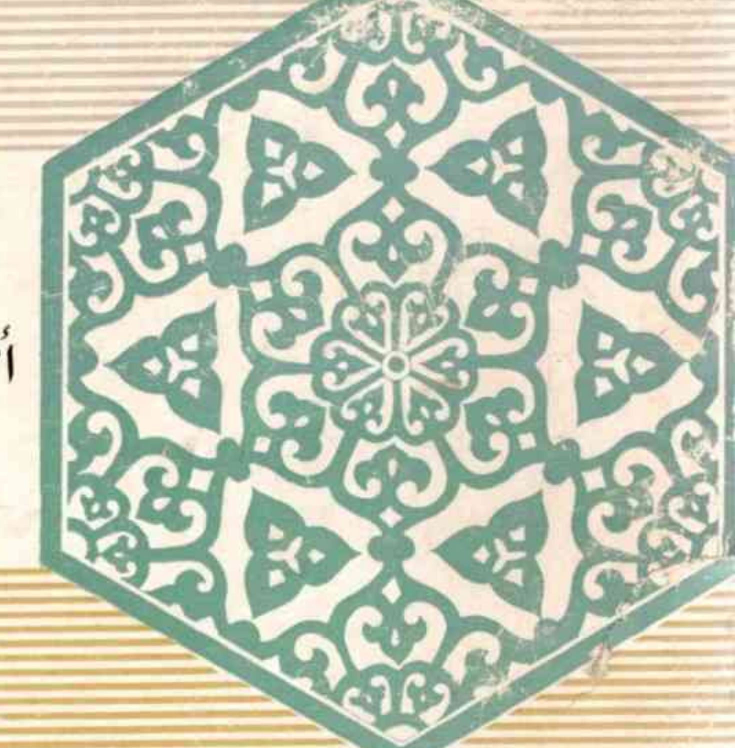
٢

المثنى بن حارثة الشيباني

فدائي أمّر نفسه

وقاد حروب المسلمين ضدّ الفرس

وقضى على الهيبة الفارسيّة



أحمد عبد الجواد الدّومي   حسن صالح العناني

منشورات المكتبة العصريّة



المثنى بن حارثة الشيباني

من أبطال الإسلام

٢

المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه

فدائي أمّر نفسه

وقاد حروب المسلمين ضدّ الفرس

وقضى على الهيبة الفارسيّة

تأليف

أحمد عبد الجواد الدومي

حسن صالح العناني

منشورات المكتبة العصرية

بيروت - صيدا



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ونشكره ، ونبرأ من حولنا وقوتنا الى حوله وقوته ، ونصلي ونسلم على سيدنا رسول الله خير قائد واعظم معلم ، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه والتابعين لهم باحسان ، ونستفتح بالذي هو خير .

وبعد ... فهذه هي الشخصية الثانية « من أبطال الاسلام » وهو المثنى بن حارثة رضي الله عنه .

وهو قائد عربي مسلم ، ملك الاسلام عليه جوانب نفسه فأسلمه زمام أمره ، واستجاب لكل توجيهاته استجابة كلفته راحته وماله ودمه ، فبذل ذلك وغيره في سماحة واغتباط ، لانه يؤمن أن الانسان متى شهد ان لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فكأنه وقّع مع ربه عقدا ، وأبرم مع مولاه عهدا ، وهو بذل النفس والمال ، وله بذلك جنة عرضها السموات والارض ، وهو العقد المشار اليه بقول رب العزة :

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » . (التوبة : ١١١) .

وانه لعجيب امر هذا الرجل الذي كان قبل اسلامه عونا للدولة الفارسية التي كانت آنذاك صاحبة السطوة والسيادة والقوة ، ولا يساويها في وزنها الدولي سوى دولة الروم .

وكانت تربط المثنى بها آخر الامر عهود ومواثيق ، كان من أحرص الناس على الوفاء بها شأن العربي في الوفاء والمروءة .

ولكنه حين أسلم ، حوّل الاسلام طاقته وما فطر عليه : من شجاعة ، وبسالة ، وعبقرية فذة ، ليعمل في اطار الدين الذي آمن به ، والحياة الاسلامية الجديدة .

واصبح نصر الاسلام شغله الشاغل ، وامله المنشود ، فوقف كالطود الراسخ مع الفئة المؤمنة ، يزلزل كيان الدولة الفارسية ، ويقض مضاجعها ، في معارك سجلها له التاريخ بكل فخار ، واصبحت غرة في تاريخ المعارك الاسلامية .

وسنضع بين يديك صورة لهذه الشخصية الفذة لتقف على اثر الايمان الذي صاغ اتباعه صياغة ربانية خالصة ، فهانت عليهم الدنيا ، ومنحهم الله العزة والنصر والسيادة ، وتحقق فيهم قوله تعالى :

« وان جندنا لهم الغالبون » . (الصافات : ١٧٢) .

والله نسأل أن يزيدنا نورا وهدى ، ويبصرنا دائما بالحق ويرزقنا اتباعه فهو حسبنا ونعم الوكيل .

احمد عبد الجواد الدومي **حسن صالح العناني**

من هو المثنى ؟

هو المثنى بن حارثة بن سلمة ين ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان[1] .

وبنو شيبان هم أحد فروع بكر بن وائل الذي ينتهي نسبه الى ربيعة.

والمثنى في أصله من العدنانيين الذين ينتمي اليهم جده بكر بن وائل .

بيئتـــه :

نشأ المثنى في بيئة انشقت على نفسها ، فقـد وقع خلاف بين بكر (الذين ينتمي اليهم المثنى) وتغلب ، إبني وائل .

وقامت بينهما الحروب والوقائع ، وانتصرت بكر على تغلب ، فتفرق التغلبيون .

وانتشرت بكر باليمامة ، فيما بينها وبين البحرين ، الى أطراف سواد العراق ، وناحية الأبلّة ، الى هيت .

ويلاحظ أن هذه الامكنة (التي انتشرت بها بكر قوم المثنى) متاخمة للفرس مما سيتجلى أثره بعد ذلك .

وقبيلة بكر بن وائل كانت تجاور قبيلة تميم بن مضر .

وقد كثر النزاع بينهمـا ، وقامت الحروب ، وتوالـت الغزوات ، ويقول المؤرخون :

« إن بكرا كانت هي المهاجمة دائما ، لكثرة ما كان يلحق بمنازلها من جَدْبٍ ، لان أرض تميم كانت تفوقها خصبا .

---

(١) أسد الغابة : ج ٤/ص ٢٩٩

ولقد اشتعلت الحروب بين القبيلتين اثنتي عشرة مرة ، فازت تميم بست منها ، وبكر بست »[٢] •

ومن جهة أخرى كان يحدث الصراع كثيرا بين بكر وفارس ، وتشتعل بينهما نار الحرب من وقت لآخر •

وحدثت بينهما وقائع حربية كثيرة ، وأشهر هذه الوقائع موقعة يوم « ذي قار » ، التي انتصرت فيها بكر على الفرس ، وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سمع أنباء هـذا النصر العربي ، لان معنـاه : أن المظلوم قد انتصف من ظالمه ، وأن الظلم قد فلّ سيفه ، وآذنت شمسه بالمغيب •

ولا شك أن القبيلـة التي تستطيع مواجهـة دولة كبرى كالفرس ، لا تخافها ولا تهابها ، بل تناوئها وتحاربها ، وتنتصر عليهـا احيانا ، هي قبيلة فيها من الحيوية ، والقوة ، والشجاعة ، رصيد موفور ، مما اضطر فارس الى مداهنتها وموادعتها ، وعقد العهود والمواثيق معها •

ولقد كان رجال بني شيبـان ، يفاخرون بهذه الامجاد ، ومنهـم بسطام بن قيس فارس بني شيبان المشهور ، الذي كان يقول عن قبيلته :

« قد علمت العرب أنّا بناة بيتها الذي لا يزول ، ومغرس عزهـا الذي لا يحول ، لأنّا أدركهم للثأر ، وأضربُهم للملك الجبار ـ يقصد كسرى ملك الفرس ـ وأقوالهم للحق ، وألدّهم للخصم » •

ومعنى ذلك : أن قتال بني شيبان للفرس ، كان مجدا عظيما لهم ، يعرفونه لانفسهم ويعرفه الناس لهم •

وأي مجد أعظم من الوقوف في وجه الظالم المعتدي ! ولا سيمـا اذا كان الظالـم قويـا ، مهيبـا ، مرهوب الجانب ، وافر العـدد ، والعـُدد ، والمال !

---

(٢) المثنى بن حارثة للعقيد محمد فرج/ص ١٦

الظروف العامة والخاصة المؤثرة فيه :

نخلص مما سبق أن ظروفا عامة وخاصة ، اشتركت في تكوين شخصية المثنى بن حارثة ، فغزت عقله وقلبه ، ووجهت سلوكه وعواطفه •

وأهم هذه الظروف هي :

أولا : حياة الصحراء ، بقسوتها ، وجفافها ، وانطلاقها ، وأثر ذلك في صنع الرجال الاشداء الاقوياء الشجعان الاحرار •

ثانيا : الخصومات التي أحاطت بالقبيلة ، وأشعلت عواطف شبابها ، وشيوخها ، بحب القوة والاستعداد للحرب •

وأشهر هذه الخصومات هي :

أ ـ خصومة بني شيبان مع بني عمومتهم من تغلب •

ب ـ خصومتهم مع تميم •

ج ـ خصومتهم مع الفرس •

ثالثا : استيطان بني شيبان الارض المتاخمة لفارس ، والتي حددها الهمذاني بقوله :

« انها تبدأ من اليمامة الى البحرين ، الى سيف كاظمة الى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبـُلـّة فهيت »[1] •

رابعا : حال القبيلة التي كان المثنى ينتمي اليها ، وهي قبيلة بني شيبان وكلها رجال أبطال مغاوير ، ما ينبغي أن يكون من بينها رجل خامل الذكر •

خامسا : كان المثنى بن حارثة معجبا ببطولة خاله « عمران بن مرة » وهو من أشهر زعماء بني شيبان ، وكان موضع فخرهم بطولة وبسالة ، وعلو مكانة ، ورفعة منزلة ، حتى أن أعشى همذان الشاعر العربي المشهور قال في عمران :

« ساد في الجاهلية ، وساد في الاسلام » •

---

(١) صفة الجزيرة العربية للهمذاني : ص ١٧١–١٧٢

وكان المثنى يدين لخاله هذا بالفضل ، ويرى فيه رجل حرب يحتذى ، وصاحب بطولة يقتدى به ![٢] .

سادسا : زوج المثنى بن حارثة :

كثيرا ما يكون للمرأة أثر كبير في حياة زوجها ، حين تتوافر فيها صفات خاصة ، تجعلها تقف بجواره ، وتشد من أزره ، وتبث فيه روحها بقدر ما تحمله من الصفات الكريمة .

وكذلك كانت زوج المثنى بن حارثة « سلمى بنت حفصة التيمية » وهي سيدة شجاعة تذكر لها المراجع التاريخية مواقف كثيرة من البطولة والاعتزاز بأداء الواجب .

سابعا : اخوة المثنى :

وكان للمثنى أخوان « المعنَّى ومسعود » .

أما المعنى : فكان رجل حرب من الطراز الاول .

ولمس المثنى شجاعته وبسالته ، فجعله ساعده الايمن ، وأسند اليه قيادة الخيَّالة ، وقد شهد مع أخيه المثنى جميع معاركه ووقائعه .

وأما مسعود : فكان قائد المشاة لقوات أخيه ، واشترك في معظم المعارك الهامة التي خاضها المثنى ، وأبلى بلاء حسنا ، وألقى بنفسه في قلب المخاطر يوم الجسر ، حتى جرح جرحا خطيرا ، وأبت عليه شجاعته الانتظار على الجرح حتى يبرأ ، فاشترك في معركة البويب وهو جريح ، وكتبت له الشهادة في هذه الموقعة ، فرثاه المثنى ومن معه من الشهداء ، رثاء يدل على عظمة الاخوين .

يقول ابن الاثير :

فصلى عليهم المثنى ، وقال : « والله إنه ليهوِّن وَجْدي أن صبروا وشهدوا البويب ، ولم ينكلوا »[١] .

---

(٢) المثنى بن حارثة للعقيد محمد فرج ص ٢٥ بتصرف

(١) لم يتراجعوا (الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٨٦)

وهذه الظروف التي عاشها رجال بني شيبان ، تبرز لنا حقيقة البيئة التي نشأ فيها المثنى ، وترعرع بين رجالها •

فقد كان لهذه البيئة ، ولهؤلاء الرجال الاثر الفعال في إنماء روحه ، وتنشئته على الايمـان بالمبدأ ، والتمسك بالعقيدة ، والجـود بالنفس ، والصدق ، والعزيمة ، والصبر ، والجلد ، والتحمل ، والشجاعة ، والاقدام ، والقوة ، والتفنن في ضروب الفروسية ، والاستماتة في الحرب •

وهذه الصفات أحس بها الكثيرون من بني شيبان ، ولمسوها في المثنى بصورة واضحة ، فارتضوه سيدا لهم ، والتفوا من حوله ، وصاروا رهن اشارته ، وخاضوا المعارك تحت قيادته ببسالة فكتبوا لانفسهم ، ولزعيمهم وقائدهم المثنى أروع صفحات المجد والبطولة في التاريخ •

أثر الاسلام في المثنى :

ولما ظهر الاسلام واعتنقه المثنى سنة تسع من البعثة[١] أضاف الى مجده في الجاهلية أمجادا اسلامية رائعة ، اذ تغير بها تاريخ أقوى دولة على وجه الارض وكان لصداه أقوى الآثار ، وأبعد النتائج •

وصول الاسلام الى بني شيبان عن طريق البحرين :

عرفنا فيما سبق أن بني شيبان كانوا يقطنون على مشارف حـدود الفرس في اليمامة فيما بينها وبين البحرين ، الى أطراف سواد العراق •

وذكر البلاذري : أن ارض البحرين كانت من مملكة الفرس ، وكان بها خلق كثير من العرب ••• وكان على العرب بها من قبل الفرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم « المنذر بن ساوى » وأن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث بالعلاء بن الحضرمي الى البحرين في العـام

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البـر ، وقد يكون اسـلام المثنى ومن معـه بعد ذلك بقليل .

الثامن الهجري ، ليدعو أهلها الى الاسلام ، وبعث مع العلاء كتابا للمنذر بن ساوى جاء فيه :

« سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك الى الاسلام أسلم تسلم يجعل الله لك ما تحب » .

فأسلم المنذر ، وأسلم معه كثير من العرب ، وبنو شيبان كانوا من القبائل العربية التي تتوق الى معرفة شيء عن الاسلام ، لكنها في حال من التردد ، بين صلاتها بالفرس ، واتفاقها مع كسرى من ناحية ، والحنين الى ما يسمعون عن الرسول العربي ، وانتشار دينه ، وقوته المتزايدة ، التي مكنته من السيطرة على مكة ، وعلى قريش أي على البلد المقدس ، والقبيلة المعظمة عند العرب من ناحية أخرى .

فقررت بنو شيبان أن ترسل وفدا ، ليلتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرى ويسمع ، ويفقه ما جاء به ، وما يدعو اليه .

أول لقاء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني شيبان

أخرج أبو نعيم عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. قال : لما أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب[1] ــ وكان ذلك في السنة التي رجع فيها من رحلة الطائف ــ .

(يقول الامام علي) :

خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه ، الى «منى» حتى دفعنا[2] الى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم ابو بكر ، فسلّم ــ وكان أبو بكر مقدما في كل حين ، وكان رجلا نسّابة ــ

فقال : مِمَّن القوم ؟

قالوا : من ربيعة .

---

(١) التي جاءت للحج في موسمه
(٢) توجهنا

قال : وأي ربيعةَ أنتم ؟

ـ فذكر الحديث وفيه قال ـ : ثم انتهينا الى مجلس عليه السكينة والوقار ، واذا مشايخ لهم أقدار ، وهيبات ، فتقدم أبو بكر فسلم ...

فقال لهم : ممن القوم ؟

قالوا : نحن بنو شيبان بن ثعلبة .

فالتفت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« بأبي أنت وأمي ، ليس بعد هؤلاء من عزّ في قومهم » .

وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وهانيء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك .

وكان أقرب القوم الى أبي بكر مفروق بن عمرو وكان مفروق قد غلب[1] عليهم بيانا ولسانا ، وكانت له غديرتان[2] تسقطان على صدره ، وكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم ؟

فقال له : إنا لنزيد على الالف ، ولن يُغلب ألف من قلة .

قال : فكيف المنعة فيكم ؟

قال : علينا الجهد[3] ، ولكل قوم جد[4] .

قال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

قال مفروق : إنّا أشد ما نكون غضبا حين نلقى ، وإنّا أشد ما نكون لقاء اذا غضبنا ، وإنا لنؤثر الجياد[5] على الاؤلاد والسلاح على اللقاح[6] ، والنصر من عند الله يديلنا[7] مرة ويديل[8] علينا مرة ، لعلك أخو قريش[9] ؟ .

قال أبو بكر : ان كان بلغكم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فها هو ذا .

---

(١) فاقهم في الحديث والبيان . (٢) ضفيرتان وكانت عادة عند العرب للرجال والنساء . (٣) بذل قدر الطاقة . (٤) بفتح الجيم : الحظ . (٥) الخيل . (٦) الناقة الحلوب . (٧) ينصرنا . (٨) ينصرهم . (٩) يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، ثـم التفت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم رسول الله صلى الله عليـه وسلم فجلس ، وقام أبو بكـر يظلله بثوبه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدعوكم الى شهادة أن لا إله الا الله ، وأني رسول الله ، وأن تؤدوني ، وتمنعوني ، وتنصروني، حتى أؤدي عن الله تعالى ما أمرني به ، فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عـن الحق ، والله هو الغني الحميد » .

قال له : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قل تعالوا أتل مـا حرّم ربكم عليكـم ألا تشركوا بـه شيئا ، وبالوالدين ، احسانا ، ولا تقتلـوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكـم وإيّاهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسـا الا وسعها ، واذا قلتم فأعدلوا ولـو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هـذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . (الانعام : ١٥١ ــ ١٥٣) .

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا مـن كلام أهل الارض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » (النحل : ٩٠) .

فقال له مفروق : دعوت والله يا قرشي الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الاعمال ، ولقد أفِكَ[1] قوم كذبوك ، وظاهروا عليك .

ــ وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانيء بن قبيصة فقال : ــ

وهذا هانيء بن قبيصة ، شيخنا ، وصاحب ديننا .

فقال له هانيء : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وصدقت قولك ، وإني أرى إن تركنا ديننا واتبعناك على دينك لمجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر ، لم تتفكر في أمرك ، وننظر في عاقبة ما تدعونا اليه ، زلة في الرأي وطيشة في العقل ، وقلة نظر في العاقبة ، وانما تكون الزلة مع العجلة وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن ترجع ونرجع ، وتنظر وننظر .

وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال :

وهذا المثنى شيخنا ، وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانيء بن قبيصة ، إنما نزلنا بين صبرين[2] : أحدهما ــ اليمامة ، والاخرى السماوة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما هذان الصبران ؟

فقال له : أما أحدهما ــ فطفوف[3] البر ، وأرض العرب .

وأما الآخر ــ فأرض فارس وأنهار كسرى .

وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى وألا نحدث حدثا ، ولا نؤوي محدثا ، ولعل هذا الامر الذي تدعو اليه تكرهه الملوك ، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب ، فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول .

---

(١) افترى

(٢) الصبر : الناحية من الشيء او طرفه ، والمقصود هنا ان بني شيبان يقيمون في مكان بين أطراف بلاد العرب ، واطراف بلاد العجم كناية عن دقة موقفهم وحساسيته ، كما يدل على ذلك سياق النص فيما بعد ، فقد كانوا يحسون بشعورين لكل منهما أسبابه : احدهما ــ ازاء العرب ، والآخر ــ ازاء الفرس . (٣) جمع طف ، وهو ما علا واشرف من الارض .

وأما ما كان مما يلي بلاد فارس ، فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول[1] ، فان أردت أن ننصرك مما يلي بلاد العرب فعلينا[2] .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أسأتم الرد أن أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه » .

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضا على يد أبي بكر « رضي الله عنه » ، ثم دفعنا الى مجلس الأوس[3] والخزرج ، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال علي رضي الله عنه :

« وكانوا صدقا صبرا ــ رضوان الله عليهم أجمعين » ــ .

كذا في دلائل النبوة لابي نعيم .

وقال في البداية : رواه أبو نعيم والحاكم والبيهقي ، والسياق لابي نعيم ــ فذكر الحديث ، وفيه بعد قوله : « إنه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أرأيتم إن تلبثوا الا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، أتسبحون الله ، وتقدسونه » ؟

فقال له النعمان بن شريك : اللهم وان ذلك لك يا أخا قريش !!

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذنه ، وسراجا منيرا »[4] .

---

(١) بهذه العبارات وضحت الظروف الدقيقة ، والموقف الحساس الذي كان فيه بنو شيبان . (٢) « فعلينا » هكذا في الدلائل ، وفي البداية « فعلنا » بحذف الياء الوسطى. (٣) يلقي ضوءا ساطعا على تاريخ هذا اللقاء بين الرسول وبني شيبان ، فقد كان ذلك في العام العاشر للبعثة .
(٤) الاحزاب : ٤٥ــ٤٦

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضا على يد ابي بكر رضي الله عنه .

قال علي رضي الله عنه : ثم التفت الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا علي : أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية ــ ما أشرفها ــ بها يتحاجزون في الحياة الدنيا ...

قال علي رضي الله عنه : وكانوا صدقا صبرا ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم من معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنسابهم .

قال : فلم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يسيرا حتى خرج الى اصحابه فقال لهم :

« إحمدوا الله كثيرا ، فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس ، قتلوا ملوكهم ، واستباحوا[1] عسكرهم ، وبي نُصروا » .

ولما تحاربوا هم وفارس ، والتقوا معهم « بقراقر »[2] فيما بعد جعلوا شعارهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، فنصروا على فارس بذلك ، وقد دخلوا بعد ذلك في الاسلام[3] .

وبهذا اللقاء ظهر للرسول صلى الله عليه وسلم تَفتّح قلوب بني شيبان للاسلام ، وخبر نفوسهم ، بما دار بينه وبينهم من حديث .

وكان لنصوص القرآن التي قرأها عليهم أثر عميق في نفوسهم ، وهذا واضح من تعليق مفروق بن عمرو على كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وواضح أيضا من كلام المثنى بن حارثة .

وقد اعجب الرسول بهذا التفتح ، وبهذه المناقشة ، وبصراحة المثنى في حديثه معه .

---

(١) استباحوا : اي استأصلوا .
(٢) مكان قريب من الفرات .
(٣) حياة الصحابة لمحمد الكاندهلوي : ج ١ ص ٨٨-٩٢

ويبدو أنه كان لكلام الرسول مع المثنى هزة أيقظت أعماقه ، وحركت دوافع الخير والشهامة ، والشجاعة المتأصلة فيه ، مما ظهر أثره واضحا في المعارك الاسلامية التي خاض غمارها على الوجه المشرف الذي سنفصله فيما بعد .

* * *

آثار هذا الدرس في حروب الردة

لقد ظهرت آثار الدرس النبوي واضحة في موقف هام لبني شيبان تحت قيادة المثنى في حروب الردة ، فقد كان هذا اللقاء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين بني شيبان ، والمثنى معهم في أخريات العهد المكي وما لبث الرسول الكريم ان هاجر الى المدينة ، وظل بها حتى لقي ربه وتولى بعده ابو بكر ، وحدثت فتنة الردة .

وقد كان لوجود النفوذ الفارسي في منطقة البحرين أثره البعيد في تشجيع حركة الردة والتمرد على الخلافة الاسلامية .

ووضحت الرؤية امام المثنى ، وتألقت بين يديه كلمات النبي صلى الله عليه وسلم : « انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه » . ومثل في قلبه وعقله ذلك اللقاء الذي لا ينساه وهو يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم معجبا بحديثه ، مأخوذا بصدقه ، مشدودا بقوة روحه .

وتجلى واضحا للمثنى درس النبي صلى الله عليه وسلم الذي يشير الى خطورة التعاون مع الفرس الذين يكرهون أن تتوحد الجزيرة العربية تحت راية واحدة .

وشاهد بعينيه رضي الله عنه أحداثا جساما أهمها :

١ ــ موت المنذر بن ساوى الذي كان حصنا للاسلام في المنطقة .

٢ ــ إبعاد الوالي الذي كان من قبل المسلمين عن البحرين .

٣ ــ إرتداد قبائل المنطقة عن الاسلام .

٤ ــ تحريض الفرس لزعماء المنطقة على التمرد ، والانتفاض على الوحدة الاسلامية العربية ، حتى ان الاستجابة الى سياسة الفرس دعت أمثال الحطم بن ضبيعة ، وهو عربي من زعماء بني بكر ، الى الدعوة لقتال أبي بكر .

ويلخص الموقف الدكتور محمد حسين هيكل عن البحرين فيقول :

« ليس عجيبا أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض » .

وقد واجه الخليفة الاول أبو بكر هذا الموقف بقوة وحسم ، فأرسل الجيوش لمحاربة المرتدين في أنحاء الجزيرة ، وبعث العلاء بن الحضرمي لردع قبائل البحرين المرتدة ، وانقاذ المؤمنين الثابتين .

دور المثنى

كان للمثنى دور عظيم مع العلاء بن الحضرمي يتلخص في أمور ثلاثة :

١ ــ سارع في تجميع الناس حوله ، ثم انضم بهم الى جيش العلاء ابن الحضرمي ، ودعا أهله من بني شيبان أن يثبتوا على دين الاسلام ، وأن يخرجوا مع الخارجين لمحاربة المرتدين والدفاع عن الدين الذي أشربوا حبه ، وأعدوا أنفسهم للتفاني في سبيله .

٢ ــ وبعد أن تم النصر للمسلمين على المرتدين أسرع المثنى على رأس جيش كبير العدد ، ونشر جنده على طول ساحل البحر ، ليصد المنهزمين الفارين من اللجوء الى أرض فارس ، وفتك بهم فتكا ذريعا .

ويرجع اليه فضل الانتصارات الكبيرة التي أحرزها المسلمون على طول خليج البصرة .

٣ ــ استطاع المثنى أن يستولي على « القطيف » وأن يصل بقواته الى دلتا الفرات ، مهددا دولة الفرس التي كانت تسند القوات المرتدة

بقيادة « الحطم » وتؤيدها ، وتساعدها على تمزيق وحدة المسلمين ، وتفريق أمة العرب بعد أن وحدها الاسلام .

وتمكن المثنى من مقاومة دسائس الفرس ، ومن القضاء على أنصارها من مختلف القبائل .

ولم يقف أمره عند ذلك بل كان اتصاله بأرض العراق ، ودعوته أهله الى الاسلام ، بداية تخطيط دقيق لفتح العراق نفسه ، وضمه الى الدولة الاسلامية الناشئة .

موقفه في حروب الردة

لما بعث أبو بكر الصديق العلاء بن الحضرمي الى البحرين لمحاربة المرتدين ، كتب « العلاء الى من ثبت على اسلامه من بكر بن وائل منهم عتيبة بن النهاس ، والمثنى ابن حارثة » .

واستجاب المثنى أسرع استجابة ، مع ملاحظة أن زعيم بني بكر (الحطم بن ربيعة) كان جبارا عاتيا ، فأعلن ارتداده عن الاسلام ، وأخذ يدعو لقتال أبي بكر ، ومنع الزكاة ، وحشد حشودا كبيرة في القطيف وهجر ، وجعلوا المنذر بن النعمان ملكا عليهم ، وحاصروا من بقي على الاسلام في ناحية (جواثي) بتأييد من فارس وملوكها .

ومع شدة الحصار ، وقلة الزاد هانت على المسلمين الحياة في سبيل دينهم حتى وافاهم العلاء ، ومعه من استجاب له من المسلمين ، وفي مقدمتهم المثنى .

وقد نصرهم الله ، وأنقذوا المسلمين المحصورين .

وقتل الحطم ، وتفرق أتباعه مذعورين واتجهوا الى جزيرة دارين ، ولحق بهم المسلمون الذين عبروا البحر خلفهم وقبضوا عليهم تماما .

وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، حتى أن نصيب الفارس[1] بلغ ستة

---

(1) من يحارب على فرسه

آلاف والراجل[1] ألفين كما ذكر ذلك مفصلا في ترجمة العلاء .

وقد كان دور المثنى بعد هذا الانتصار العظيم في غايــة الاهمية ، فقد قام ينشر جنوده على طول الحدود بين بــلاد العرب وفارس ليمنــع المرتدين المنهزمين من اللحاق ببلاد فارس .

وكان المثنى ورجاله خير من يقوم بتنفيذ هذه المهمة بسبب ما امتاز به المثنى من صفات شخصية أهّلته للدور الخطير الذي قام به ، وبحكم موطن قبيلته الواقع بين الفرس والعرب ، مما جعل المثنى وقبيلته على دراية تامة وخبرة كاملة بطبيعة المنطقة ومواضع خطورتها .

* * *

(١) من يقاتل بدون فرس

المثنى يصعّد الحرب ضد الدولة الفارسية

بعد نجاح المثنى في القضاء على المرتدين ، وعزلهم عن التأييد الفارسي الذي كانوا يتلقونه أول الامر بالتحريض ، وآخره بالإلجاء والايواء ، لم يغرب عن ذهنه أن الامتداد الطبيعي لارض العراق يمثل جسرا خطيرا يمكن للفرس عن طريقه توجيه المؤامرات للحكم الاسلامي العربي في المنطقة حيث كانت العراق منطقة نفوذ فارسية .

فأراد المثنى تقليم أظافر الفرس وأتباعهم في العراق ، حتى يؤمّن الاستقرار الذي حققه للاسلام والمسلمين مع العلاء في منطقة البحرين ، ويوقع القصاص بالبغاة الظالمين من الفرس ، ويلقنهم دروسا يعرفون بها أنه لا بد أن يلقى المعتدي جزاءه مهما طال الزمن .

لذلك اتجه المثنى بقواته الباسلة التي بلغت الآلاف من بني شيبان وغيرهم ليؤدي المهمة التي أزمع عليها ووطّن نفسه وجيشه لها ، فأخذ يواصل سيره ، حتى بلغ أرض السواد ــ من العراق ــ وكانت مستعمرة فارسية مع أن أغلب سكانها من العرب ، ولهذا كان العرب يرونها أرضا عربية ، الا أنهم كانوا لا يستطيعون الوقوف ضد النفوذ الفارسي آنئذ .

ولقد كان موقف الفرس الواضح الصريح هو محاولة بث الوهن والفتن في نفوس العرب المسلمين من جانب ، وحماية المرتدين ومساعدتهم من جانب آخر ، مما جعل المثنى يتذكر الكلمات المشرقة الجامعة التي خاطبه بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم التقى به مع وفد بني شيبان في منى :

« إنه لا يقوم بدين الله الا من حاطه بجميع جوانبه » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقصد بهذه الكلمات حماية الاسلام من الفرس وغيرهم ، وكأن القدر السعيد قد اختار المثنى ليناقش الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويسمع منه في شأن فارس •

وما نشك في قليل أو كثير أن المثنى كان في موقفه من الفرس مندفعا برغبة ملحة وعارمة في أن يطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمليا بالقضاء على دولة الفرس التي كان يطلب للعلاقة بها استثناء خاصا من النبي فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، وأنهى اللقاء بينهما ، وقام من المجلس •

هذا الموقف لا يمكن للمثنى أن ينساه أبد الدهر ، ولا يجد له من كفارة بين يدي الله سبحانه الا مزيداً من العمل للاسلام ، والتفاني في نصرته ضد من وقفوا في سبيله ،

ولهذا كان موقف المثنى بن حارثة في تصعيده للحرب مع الفرس موقفا رياديا وقياديا ليس لبضعة آلاف من الجند أو قبيلته بني شيبان فقط ، وانما للامة الاسلامية كلها ، وعلى رأسها الخليفة الاول أبو بكر الصدّيق •

فقد فكر المثنى في أدب ونظام وطاعة في التوجه الى المدينة ليعرض الامر كله على الخليفة وكبار الصحابة بالمدينة •

فالمثنى هو الذي طور حروب الردة ـ بعد الانتهاء من أمر المرتدين ، وحولها الى حرب هجومية ضد الفرس وجعل يستدرج المسلمين عمليا بتداعي الاحداث نفسها ، كما سيأتي ، الى مواجهة الدولة العاتية ، دولة الاكاسرة المعتدين • وذلك تأثرا بمنطق النبوة ، وقوة الروح الاسلامية التي تأبى الذل ، وترفض الضيم ، ولا تغمض عينيها على مهانة •

خطورة المهمة التي كانت تراود آمال المثنى

هذا الاتجاه من المثنى يحمل خطورة بالغة تستدعي الاهتمام والاعداد المناسبين •

ولا شك ان اتجاهه كان في منتهى الصعوبة والخطورة ، فدولة الفرس كانت واحدة من أكبر دولتين في العالم آنذاك •

وكانت الفرس تتصدى للدولة الكبرى المنافسة لها، وهي دولة الروم• وقد عجزت كلتا الدولتين عن القضاء على غريمتها •

فكيف يدور بخلد العرب انه قد آن الاوان لمناصبة هذه الدولة العاتية الجبارة العداء فضلا عن محاولة القضاء عليها ، لكن همة المثنى وآماله الكبار دفعته لهذه المبادرة الخطيرة ، فمع دوافع الايمان العميق في نفس المثنى بن حارثة كان هناك الدافع الطبيعي الذي يسيطر على كل عربي حر ، في احساسه بحق العرب الضائع وكرامتهم المهدرة في أرضهم وبلادهم، وعدوان الفرس المستمر على سيادتهم وحريتهم سنين عديدة •

وحتى العهود التي بين الفرس وبعض قبائل العرب هي في الحقيقة كالمعاهدات التي بين القوي والضعيف •

ولذلك يرى بعض المحققين أن المثنى بدأ يهاجم ويغير على سواد العراق في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودته مباشرة من موسم الحج الذي التقى فيه برسول الله(١) •

والذي يظهر لنا أن المثنى بعد أن أسلم وعاد الى قومه أخذ يغير بجماعته على سواد العراق •

ولعل سبب ذلك أنه لما كان الاسلام يمنع العرب من إغارة بعضهم على بعض ، وكان من عادة العرب هذه الغارات •

فقد وجد المثنى وجماعته في مواطن الفرس ومنازل أنصارهم من العرب الذين لم يتقبلوا الاسلام سبيلا الى نشر الدين •

فلما كانت حروب الردة ظل المثنى على حاله يغير على سواد العراق •

---

(١) يقول ابن عبد البر صاحب الاستيعاب : « كان اسلامه وقدومه في وفد قومه على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع وقيل سنة عشر ـ اي من البعثة ـ » .

ونضيف أن ذلك السياق قد يجد سندا يبرره حين فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصار قبائل العرب على الفرس في وقعة ذي قار التي كان الفرس يحاربون العرب فيها في الوقت الذي كان فيه رسول الله يحارب اهل مكة • لان هذه المعركة وقعت بين غزوة بدر وغزوة أحد على الارجح ، وقد نال فيها العرب من الظفر ما شجعهم على الاستهانة بقوة الامبراطورية الفارسية(١) •

وكان فرح الرسول صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على الفرس واضحا في قوله لاصحابه خلال حديث له عن ذي قار :

« ان هذا لاول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نُصِروا » ، ومن المحتمل أن يكون معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « بي نصروا » ان النصر كان بسبب تأثيره فيهم بتوجيه هذه المعارك الوجهة الصحيحة حيث أثمرت تعاليم الاسلام التي تأبى الضيم والاستعباد •

سبب موقعة ذي قار

ووقعة ذي قار كانت محض عدوان وبغي من الفرس على العرب يصور لنا مدى التسلط والجبروت والظلم الفارسي •

فقد غضب كسرى على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فهرب النعمان ولجأ الى بني شيبان ، فأجاره هانيء بن قبيصة وقال له :

« لقد لزمني زمامك واني مانعك مما أمنع منه نفسي وأهلي ، لكن كسرى بعث بالامان الى النعمان ، فذهب اليه ، فغدر به ، وخان عهده ، وألقى به بين أرجل الفيلة ، فرفسته حتى مات » •

ثم بعث كسرى الى هانيء يطلب منه أن يسلمه ودائع النعمان التي كان قد احتفظ بها عنده عندما لجأ اليه ، فأبى هاني ، وأقسم كسرى بالنار ان يهلك بني بكر وأحلافهم •

---

(٢) خالد بن الوليد لعمر ابو النصر ص ٦٩

وأثار هذا القسم مشاعر العرب فاجتمعوا في ذي قار ، وتولى بنو شيبان قيادتهم ودار القتال بين الطرفين عنيفا وقويا لا رحمة فيه .

واتخذت بكر خطة جريئة فقطعوا أحزمة رواحل نسائهم حتى يثبتوا لآخر رمق أو ينتصروا .

وبهذه الاستماتة انخذل الفرس ، وانهزموا ، وفروا ، وأصبح هذا اللقاء من أعظم أيام العرب ، وفرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فمن عدالة الاسلام أن يقف الى جانب الضعيف حتى يرد له حقه من ظالميه وجلاديه ، وهكذا امتزج الدافعان عند المثنى امتزاجا جعل منه رجل الموقف الذي أعده القدر ، تاريخا وعقيدة وتجربة وخبرة ، ليهشم أنف الاكاسرة الظالمين ويفتح طريق بلادهم أمام المسلمين .

وهكذا اتسق الاسلام مع الاحتياجات الفطرية المشروعة يحنو عليها ويرعاها ويقف الى جوارها يشد من أزرها بعد تهذيبها ووضعها في الإطار السليم .

***

المثنى يفتح الطريق الى الفرس

بهذه الانطباعات كان المثنى يجاهد في سبيل الله .

وكما استطاع أن يسيطر على طول خليج البصرة بعد القضاء على المرتدين حين نشر جنده على طول ساحل البحر ليصد المنهزمين الفارين من اللجوء الى أرض فارس .

فقد استطاع من جديد أن يستولي على (القطيف) وعلى (هجر) ، بل واستطاع السيطرة على مصب (دجلة والفرات) ، وبدأ سلسلة من الغارات على مدينة فارسية تسمى (دهشنابازاردشير) وأعطى الفرس بهذه المدينة درسا قاسيا كسر به طغيانهم وجبروتهم .

وقد لحق التخريب والدمار بهذه المدينة الفارسية حتى سميت

(الخريبة)[1] لكثرة ما أصابها من الخراب ، ودخلها المثنى ، وغنم كل ما فيها ، ثم اتجه المثنى الى مدينــة (الأبلة)[2] ثــم أغار المثنى على (الحيرة) •

ووقعت مناوشات كبيرة بينه وبين سكانها •

وكانت شجاعته وقوته وبطولة رجاله من العوامل الكبيرة التي أثارت في القبائل العربية روح الكرامة وشجعتهم على النفور والتمرد ضد الحكم الفارسي حتى بلغ الامر ببعض هذه القبائل أن حملت السلاح في وجــه حكامها من الفرس •

أخبار المثنى تسبقه الى الخليفة

بينما أبو بكر يتابع باهتمام حركة المسلمين وجهادهم ، ترامت اليه أنباء المثنى بن حارثة وأنه استطاع أن يضع يده على (القطيف) و (هجر) وسيطر على مصب (دجلة والفرات) وقضى على الفرس وعمالهم ، وتابع سيره بقواته الى الشمال ، ونزل في قبائل العرب التي تقيم بدلتا النهرين ، وتحدث اليهم وتعاهد معهم •

وسأل أبو بكر أصحابه قائلا :

« من هذا الذي تأتينا أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ »

ويرد قيس بن عاصم على أبي بكر :

« هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا قليل العدد ، ولا ذليل الغارة ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني »[3] •

ولم يكــن تساؤل الخليفــة لان المثنى مجهول المكانة شخصيــة ونسبا ، وإنما كان التساؤل لانه لم يكن يعرف أن الذي يفعل الافاعيل بالاعداء هو المثنى بن حارثة •

---

(١) بنيت مكانها مدينة البصرة القديمة في عهد عمر ، وعمرها المسلمون ولكثرة عمارها اصبحت تسمي « خزانة العرب » .

(٢) في موضع (البصرة الحالية) .

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر القسم الرابع صـ ١٤٥٧ .

المثنى يصل الى المدينة ويقابل الخليفة

كان المثنى بن حارثة يتصرف كما يتصرف أمهر القواد الذين عرفهم تاريخ الانسانية •

فمع بداوة المواصلات ومشقتها في ذلك الوقت ، كان المثنى سريع الحركة والمفاجأة •

وقد رأى بعمق تفكيره وسلامة إدراكه أن الصراع الدائر بينه وبين الفرس يحتاج الى أن تتبناه الخلافة في المدينة •

فليس من المستطاع لقواته التي تعمل تحت امرته أن تحارب وحدها مملكة عظيمة مترامية الاطراف كمملكة الفرس ، كما أن الاصل في القائد المسلم أن تكون سياسته في الاطار الرسمي للدولة والجماعة المسلمة •

ولهذا أسرع المثنى الى أبي بكر بالمدينة خصوصا وأنه في حاجة متجددة الى الامدادات التي تتناسب وضخامة المهمة التي يتصدى لها •

لهذا أسرع المثنى الى المدينة حيث التقى بالخليفة ، ونقل اليه صورة واضحة المعالم عن أرض السواد وأخبره بتفاصيل حروبه ووقائعه ، وقدم له وصفا للحالة الداخلية لبلاد الفرس ، وجعله يقف على أمورها ، واضطراب حبل دولتها وانهيار كل قوة أو منعة فيها •

وما زال المثنى يهون على الخليفة أمر العراق ، ويغريه ببلاد فارس التي يطلقون عليها اسم جنة الارض لكثرة غلاتها ، ووفرة خيراتها •

هذا فوق أن المثنى طلب من الخليفة أن يقوم بتأمين العرب من أهلها وحمايتهم من شرور حكامها •

وقال المثنى للخليفة : « أمِّرني على من قِبَلي من قومي أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفك ناحيتي » •

مشاورات أبي بكر والمثنى

جمع أبو بكر أصحابه ، وعرض عليهم ما جاء من أجله المثنى • وتداول القوم المشورة واستقر الرأي على أن يؤخذ رأي خالد بن الوليد

بصفته رجلا عسكريا ذاع صيته في جميع الارجاء خبيرا بشؤون الحرب والقتـــال .

وكان خالد في هذه الفترة قد فرغ من غزوة عقرباء ، وكان مقيمـــا باليمامة ، فاستدعاه أبو بكر فجاء ، وعرض عليه الامر ، فدرسه ثم وافق عليه ، وأيد مطالب المثنى تأييدا عظيما مطلقا ، وأشار بضرورة الاسهـــام الايجابي في عمليات العراق التي يقوم بها المثنى ، ومعاونته معاونة فعالة حتى يستطيع أن يفتح أبواب العراق أمام الجيوش الاسلامية .

وأقرّ أبو بكر رأي خالد ، ثم أقره الصحابة .

وأصدر أبو بكر أوامره بتأييد المثنى واستمراره في عملياته الحربية ، وكتب له عهدا بذلك .

عودة المثنى الى بلاد الفرس

عاد المثنى الى بلاد الفرس ، وتولى قيادة جيشه ، وأخذ يعد العدة للقيام بالدور الخطير الذي أُلقي على عاتقه ، وأحس بالمسؤولية الضخمة التي أصبحت في عنقه .

وفي هذه الاثناء عاود أبو بكر التفكير في أمر العراق ، ورأى أن يُمدّ المثنى بقوات وامدادات تساعده وتسانده وتشد من أزره ليتحقق في بلاد الفرس نصر سريع عاجل .

فأصدر أوامره الى خالد بن الوليد بالسير الى العراق ليكون القائد الاعلى كما أمر عياض بن غنم بالتحرك للعراق أيضا بعد اخضاع المتمردين بدومة الجندل .

وهكذا ما لبثت مشاورات المثنى مع أبي بكر أن أعطت ثمراتها ، فأشعلت المنطقة كلها نارا على الفرس .

يقول ابن الاثير :

« أرسل أبو بكر الى خالد بن الوليد وهو باليمامة يأمره بالمسير الى

العراق وقيل : بل قدم المدينة من اليمامة ، فسيره أبو بكر الى العراق .

وكتب الى عياض بن غنم أن يقصد العراق .

وأمر أبو بكر خالدا وعياضا أن يستنفرا من قبائل أهل الردة من رجع الى الاسلام .

وأمد خالدا بالقعقاع بن عمرو التميمي .

وأمد عياضا بعبد بن غوث الحميري .

وكتب أبو بكر الى المثنى ، وحرملة ، ومغدور ، أن يلحقوا بخالد (بالأبُلَّة) »[1] .

* * *

المثنى القائد والجندي

ما من شك أن المثنى لقي ترحيبا وموافقة من أبي بكر على التوجه الى فارس ، ونجح كذلك في حشد هذه المجموعة الممتازة من قادة المسلمين في أرض العراق .

ومنذ وصل خالد بن الوليد كان طبيعيا أن يضع المثنى نفسه تحت تصرفه كأبسط جندي في الجيش الاسلامي الكبير ، لكن خالدا الذي يعرف حقوق الابطال جعل المثنى على رأس مقدمة الجيش .

يقول ابن الاثير :

« ولما قدم خالد فرق جنده ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحد ، على مقدمته المثنى وبعده عدي بن حاتم ، وجاء خالد بعدهما »[2] .

بداية الاعمال الحربية للمثنى تحت امرة خالد

أول المعارك التي اشترك فيها المثنى مع خالد بن الوليد كانت في (كاظمة) وتسمى أيضا هذه المعركة بذات السلاسل .

يقول ابن الاثير :

(١-٢) الكامل : ج ٢ / ص ١٦١

« واقترنوا ـ أي الفرس ـ في السلاسل لئلا يفروا ... وسميت الوقعة بذات السلاسل »[1] .

لقد كان قائد الفرس في هـذه المعركة هو (هرمز) وكان جبـارا قاسيا سيء الخلق مع قبائل العرب .

وقد جعل القيود والسلاسل في جنود جيشه لقسرهم على البقاء في مواجهة العرب .

يقول ابن الاثير عن هرمز :

« وكان سيء المجاورة للعرب ، فكلهم عليه حنق ، وكانوا يضربونه مثلا ، فيقولون : أكفر من هرمز »[٢] .

كان هرمز مغرورا سريع التصرف .

سمع أن خالدا وجيشه في طريقه الى الحفير فسبق بالفرس اليه .

« وجعل على مقدمته (قباذ) و (أنو شجان) وكانـا من أولاد أردشير الاكبر ، واقترنوا في السلاسل لئلا يفروا » .

فسمع بهم خالد ، فمال بالناس الى (كاظمة) فسبقه هرمز اليها .

وقدم خالد فنزل على غير ماء .

فقال له أصحابه في ذلك : ما تفعل ؟

فقال لهم : لعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين .

فحطوا أثقالهم ، وتقدم خالد الى الفرس فلاقاهم .

وأرسل الله سحابة فأغدرت وراء صف المسلمين فقويت قلوبهم »[٣] .

* * *

نهايـة هرمـز

يقول ابن الاثير :

« وخرج هرمز ، ودعا خالدا الى البراز ، وواطأ أصحابه على الغدر

---

(١) الكامل جـ ٢ صـ ١٦١
(٢-٣) جـ ٢ صـ ١٦١-١٦٢

بخالد ، فبرز خالد ، ومضى نحوه راجلا ، ونزل هرمز أيضا ، وتضاربا فاحتضنه خالد ، وحمل أصحاب هرمز ، على خالد غدرا وخسة ــ فما شغله ذلك عن قتله •

وحمل القعقاع بن عمرو فأزاحهم ، وانهزم أهل فارس ، وركبهم المسلمون ••• واخذ خالد سلب هرمز ، وكانت قلنسوته بمائة ألف درهم »[1] •

المثنى في هذه المعركة

لقد كان المثنى في مقدمة هذا الجيش كما سبق أن ذكرنا حيث جعله خالد على المقدمة التي أدت واجبها حتى انتهت المعركة بانتصار المسلمين ، ولكن لم يكن دور المثنى مقتصرا على هذه المسؤولية الرئيسية وحدها ، بل كانت تنتظره مهمة أخرى لا تقل أهمية عن الانتصار نفسه ، وهي مهمة مطاردة الجيش الفارسي المنهزم •

فالمطاردة بالنسبة للمنهزمين تقضي على أي بقية من أمل يراودهم في تنظيم صفوفهم وتدمر نهائيا معنوياتهم •

ومن أجل هذا رأى خالد أن يقوم بالمطاردة رجل قدير عليم بفنون الحرب وأصولها ليستطيع أن يحقق الغرض من المطاردة بقوة وحكمة وعلم بشؤون الحرب • فاختار المثنى بن حارثة وتركه وحده يقوم بهذه المهمة الخطيرة بينما انصرف هو تجاه البصرة •

يقول ابن الاثير :

بعث خالد بالفتح والاخماس[2] الى أبي بكر ، وسار حتى نزل بموضع الجسر الاعظم بالبصرة وبعث المثنى بن حارثة في آثارهم •

* * *

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ١٦١
(٢) هي خمس الغنيمة وهو نصيب بيت المال من غنائم الحرب .

حصن المراة في طريق المطاردة

« وحاصر المثنى بن حارثة حصن المرأة ففتحه وأسلمت ولم يعرض خالد وأصحابه الى الفلاحين لان أبا بكر أمرهم بذلك »[1] .

وتفصيل ذلك أن المثنى « أسرع يلاحق المنهزمين الفارين في اتجاه المدائن ، ومرّ أثناء المطاردة بحصن تقيم فيه اميرة فارسية أطلق عليه مؤرخو العرب اسم حصن المرأة .

رأى المثنى أن انشغاله بهذا الحصن قد يعطله عن هدفه الاساسي وغرضه الرئيسي وهو رجل حرب يعلم أن من أهم مبادئها المحافظة على الفرص ، ولهذا ترك مهمة مواجهة الحصن لأخيه (المعنّى) وأمره بمحاصرته ثم تقدم هو في طريقه ، فقوبل بحصن آخر كان يقيم فيه زوج الاميرة ، وكان الحصن يعترض طريقه فهاجمه وقضى على من فيه وقتلهم وأخذ أموالهم ثم استمر بعد ذلك في مطاردته للجيش الفار .

ولما علمت الاميرة بما اصاب زوجها صالحت (المعنى) ثم أعلنت اسلامها وعرضت عليه ان يتزوجها فتزوجها »[2] .

موقعة المذار . أو (الثني)

تكشف هذه الموقعة عن عبقرية المثنى ودهائه .

ذلك أنه وهو يطارد المنهزمين بلغه أن الملك اردشير قد أعدّ جيشا آخر فور هزيمة هرمز .

وقد كان مع المنهزمين إبناه قباذ وأنو شجان .

وتقدم هذا الجيش الفارسي الجديد الى موقع بين البصرة وواسط يسمى المذار ، وانضم اليه المنهزمون في وقعة الكاظمة .

وصلت هذه المعلومات الى المثنى فلم يرتبك لهذه المفاجأة ، ولم يندفع بالعاطفة لمواجهة جيش يفوق قواته أضعافا مضاعفة ، كما أنه لم

---

(١) الكامل : ج ٢ صـ ١٦٢

(٢) المثنى بن حارثة للعقيد محمد فرج نقلا عن الطبري .

ينسحب ويترك الطريق أمام الجيش الفارسي الجديد يزحف كيف يشاء ، بل أدرك أن عليه مسؤولية دقيقة في مواجهة هذه القوات بالمناوشة دون الدخول معها في التحام مباشر •

وفي نفس الوقت أرسل فورا بهـذه المعلومات الى القيادة العامـة يستنجد بخالد ويحيطه علما بالموقف الدقيق الحرج •

ووصل خالد حيث سار الى الذين تجمعوا من فلول الفرس عنـد نهر الثنى •

واقتتل الفريقان ، فقتل قارن وأنو شجان وقباذ وهم أمراء الجيش الفارسي • وقتل من الفرس ثلاثون ألفا سوى من غرق •

وما منع المسلمين من استمرار مطاردتهم سوى مياه نهر الثنى •

وبهذا تم النصر للمسلمين ، وغنموا مغانم كثيرة •

وقد وزعت هذه الغنائم على النحو الذي نظمه الاسلام[1] •

واستمر المثنى في جهاده الكبير العظيم تحت قيادة خالد بن الوليد ، فانتقل معه من موقعة الى موقعة ، ومن قتال الى قتال •

ظل جنديا يطيع ، وقائدا يطاع مستمسكا بمبادئه ، قويا في ايمانه ، عظيما في قتاله ، حتى توغّل الجيش الاسلامي في بلاد الفرس ••• في بانقيا ، وباروسما ، والدلجة ، والليس ، وأمفيشيا ، والحيرة ، والأنبار ، وعين التمـر ، وخنافس ، والحصبـة ، والثنى ، والبشر ، والرضاب ، والفراض •

لقد أدى المثنى دورا كبيرا خطيرا في هذه المعارك ، كان له فضل في النتائج التي انتهت اليها •

المثنى يعود قائدا عاما في العراق

صدر أمر من الخليفة الى خالد بن الوليد بالتحرك الى الشام •

---

(١) الكامل : ج ٢ ص ١٦٨ بتصرف

ووقف القائد الذي عجزت النساء أن تلد مثله (خالد بن الوليد) وقف أمام المثنى في لحظات وداع وتقدير وعرفان ، وهو يقول له كلمات موجزة لكنها تؤدي الى كبير المعنى الذي يضع المثنى في مكانه الصحيح .

قال له خالد :

« إرجع رحمك الله الى سلطانك غير مقصر ولا وان » .

وذلك الرأي من خالد في المثنى كالتقرير الختامي لمرحلة هامة من تاريخ فتح فارس ، وموقف هذا القائد منها .

الكتائب الاسلامية العربية تواجه الفرس والروم في وقت واحد

حين انصرف خالد من العراق لم يكن ذاهبا ليستريح في المدينة ، وانما كان في طريقه الى جبهة اخرى لا تقل أهمية عن الجبهة التي ترك المثنى قائدا عاما لها .

ولذلك فقد استصحب معه نصف الجيش ، وترك للمثنى نصفه .

يقول ابن الاثير :

« لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر » .

فكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير اليهم والحث ، وأن يأخذ نصف الناس ، ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني ، ولا يأخذنّ من فيه نجدة ، الا ويترك عند المثنى مثله »[1] .

نظرة المثنى الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد حدث أثناء قسمة الجيش بين القائدين العظيمين تنافس يدل على قيمة الصحابة الميامين في ساحات الحرب والقتال .

فقد كانت تعليمات أبي بكر تقضي بتقسيم الجيش بالسوية بين المثنى وخالد ، غير أن خالدا تأول في التفسير ، واستأثر لنفسه بالصحابة .

---

(١) الكامل : ج ٢ ص ١٧٠

وهنا يأبى المثنى الذي تعود على الطاعة الكاملة الا أن يأخذ نصف الصحابة !!

يقول ابن الاثير :

« فاستأثر خالد بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على المثنى ، وترك للمثنى عدادهم من أهل القناعة ممن ليس له صحبة ، ثم قسم الجند قسمين .

فقال المثنى :

« والله لا أقيم الا على إنفاذ أمر أبي بكر ، وبالله ما أرجو النصر الا بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

فلما رأى خالد ذلك أرضاه »[1] .

هذه الكلمات من المثنى تدل على حسن ظنه بصحابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى صدق تعلقه بهم .

وتشهد للصحابة في نفس الوقت بأنهم رجال حرب ، وفرسان ملاحم ، نظاما وثباتا وطاعة ومشورة .

وكل قائد يريدهم معه ، حتى يفوز بالنصر ، نتيجة لجهادهم ، وصمودهم ، وبذلهم ، وعلمهم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا يجب أن يكون كل مسلم مقتديا بالرسول وصحابته، متمسكا بهديهم ، حريصا على توقيرهم .

يقظة المثنى وشجاعته

كان لرحيل خالد بن الوليد عن العراق ، أثر كبير في عودة الآمال للفرس ، وظنوها فرصة ذهبية ، يستطيعون فيها تأديب العرب والمسلمين ، واخضاعهم واسترجاع نفوذهم وهيبتهم .

ولم يكن المثنى ليخفى عليه أمر بدهي كهذا بخلو مكان القيادة من

---

(١) الكامل : ج ٢ ص ١٧٠

خالد ، ومعه نصف الجيش فأعد نفسه وجيشه لمواجهة المسؤوليات والتحديات ، وشتى الاحتمالات ، وأقام بالحيرة ، ووضع المسلحة[١] وأذكى العيون »[٢] .

موقعة بابل

ظن الفرس أن مكان القيادة قد خلا برحيل خالد ، لكن المثنى ملأ مكان القيادة بما أدهش الفرس وأذلهم وأذلهم . يقول ابن الاثير : « استقام أمر فارس بعد مسير خالد من الحيرة بقليل وذلك سنة ثلاث عشرة على شهريزان بن أردشير بن شهريار سابور فوجه الى المثنى جندا عظيما عليهم (هرمز جاذويه) في عشرة آلاف ، فخرج المثنى من الحيرة نحوه ، وعلى مجنبتيه (المعنى) و (مسعود) أخواه ، فأقام ببابل ، وأقبل هرمز نحوه ، وكتب كسرى شهريزان الى المثنى كتابا : إني قد بعثت اليكم جندا من وحش أهل فارس ، انما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك الا بهم » .

وجاء رد القائد العربي الملهم صفعة مفاجئة لم يكن يتوقعها الفرس ، وعرف المثنى كيف يستغل هذه الرسالة أحسن استغلال ، مما جعل الفرس يغضبون من ملكهم ، فكان تصرف المثنى كمن صوب اليه خصمه سلاحا ، فأعاد سلاح الخصم الى صدره وقتله به ، وهذا نص رد المثنى الى شهريزان :

« انما أنت أحد رجلين ، اما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، واما كاذب ، فأعظم الكاذبين فضيحة عند الله وعند الناس الملوك ، وأما الذي يدلنا عليه الرأي ، فأنكم انما اضطررتم بهم ، فالحمد لله الذي ردَّ كيدكم

(١) المسلحة : قوم في عدة بموضع رصد قد وكلوا به بازاء ثغر (لسان العرب : ص ٤٨٧)
(٢) نشر الجواسيس

الى رعاة الدجاج والخنازير »[1].

ويعلق خبير عسكري فيقول : « فماذا يصنع رعاة الدجاج والخنازير في ميدان الحرب والقتال ، إنه كتاب يدل على عدم خبرة كاتبه بفنون الحرب وأساليب القتال ، كيف يلتقي هؤلاء بأسد الحرب أبطال النزال ؟

ان رجال شهريزان عابوا عليه كتابه وأخذوا عليه قوله وقالوا له : « جرّأت علينا عدونا بالذي كتبت به اليهم فاذا كاتبت أحدا فاستشر » . (المثنى بن حارثة ص ٨١ــ٨٢) .

لقد كان للكتاب الذي ردّ به المثنى على كسرى وقع نفّاذ في نفوس الفرس ، ولقد كان الكتاب وحده بين يدي موقعة بابل كتيبة معنوية دمّرت روح القوة والشجاعة عند الفرس . ثم أقبل هرمز بجيشه يتقدمه فيل هائل مدرب على تفريق الجند بخرطومه القوي ، وكان لا بد من القضاء على هذا المخلوق العنيد حتى يستطيع جيش المسلمين أن يخوض معركة متكافئة ، وانتخب المثنى بعض رجاله الاقوياء وتقدمهم بنفسه نحو الفيل الهائج ، وهاجم المثنى الفيل هجوما متكررا وعنيفا حتى أصاب منه نقطة ضعف فهوى الفيل على الارض صريعا لضربات المثنى وأبطاله ، شاهدا بين يدي الفرس وأمام أعينهم بالبطولة الفائقة والفروسية المنقطعة النظير للرجال العرب المغاوير وللمسلمين الشجعان . وكان لمصرع الفيل أثر على الفرس آذن بنصر سريع للمسلمين ، وقويت به عزائم المؤمنين ومضوا يهاجمون الفرس هجوما لا يكف ولا ينقطع . حتى أوقعوا بهم هزيمة ساحقة واحتل المثنى ورجاله مواقع الفرس ولاحقوهم بالمطاردة حتى وصلوا بهم الى أبواب عاصمتهم (المدائن) .

آثار انتصار المسلمين في موقعة بابل

لقد أحدث انتصار المثنى في بابل جملة آثار قيمة رائعة ، يقول ابن

---

(١) الكامل : جـ ٢ صـ ١٧٤

الاثير : « وانهزم الفرس ، وتبعهم المسلمون الى (المدائن) يقتلونهم ومات شهريزان لما انهزم هرمز جاذويه ــ أي من شدة الحزن والكمد ــ واختلف أهل فارس ــ أيضا نتيجة للهزيمة ــ وبقي ما دون دجلة بيد المثنى ثـم اجتمعت الفرس على (دخت زفان) ابنـة كسرى فلم يُنَفَّذ لها أمـر وخُلِعَت ، وتشاغل الفرس بذلك وأبطأ خبر أبي بكر على المثنى[1] .

حكمة المثنى واستفادته من ارتباك الفرس

لقد استطاع المثنى أن يفرض ارتباكا شديدا على دولـة الاكاسرة واستطاع في نفس الوقت أن يستفيد بهذا الوقت قبل أن يفيق الفرس ، وأدرك المثنى بحاسته العسكرية أن لهذا الانتصار الذي حازه رد فعـل شديدا وقويا سيظهر على الفرس بعد افاقتهم من الصدمة ، فماذا فعـل المثنـى ؟

اللقاء الثاني مع أبي بكر

واجه المثنى الجيوش الفارسية وحده وقضى عليها في معركة (بابل) بوصفه القائد العام الذي يمثل الخلافة الاسلامية في المنطقة ، ولم يمنعه هذا الموقف بما فيه من مجد أن يعيد تقدير الموقف تقديرا دقيقا بعيـدا عن عوامل الضعف أو الغرور ، وميزة المثنى سرعة التصرف فور الدراسة والاقتناع حتى لا تضيع الفرصة ، ولذلك قرر السفر فجأة الى المدينة ، لمقابلة أبي بكر مرة اخرى ، ليطلب منه مددا جديدا ، يعوض به مـدد خالد . يقول ابن الاثير :

« وأبطأ خبر أبي بكر على المثنى فاستخلف على المسلمين بشيرا بن الخصاصية ، وسار الى المدينة ، الى ابي بكر ليخبره خبر المشركين ــ أي الفرس ــ ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فانهم

---

(١) الكامل : ج ٢ صـ ١٧٤

أنشط للقتال من غيرهم »[1] .

اهتمام أبي بكر بالمثنى يبلغ الذروة مع انه كان في مرض الموت

لقد بلغ من اهتمام الخليفة بالمثنى أنه أجابه الى طلبه وهو يحتضر ، بل وأوصى في لحظاته الاخيرة عمر بن الخطاب الخليفة من بعده خيرا بالمثنى ، وأن لا يشغله موته عن واجب الاستجابة للمثنى فيما يريد . يقول ابن الاثير : « فقدم المثنى ، وأبو بكر مريض قد أشفى — أي يحتضر — فأخبره الخبر فاستدعى عمر وقال له : اني لارجو أن أموت يومي هذا ، فاذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم ، فقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ، وما أصيب الخلق بمثله ، واذا فتح الله على أهل الشام ، فأردد أهل العراق الى العراق ، فانهم أهله ، وولاة أمره ، وأهل الجرأة عليهم[2] .

هذه الكلمات من أبي بكر ، وفي مثل اللحظات التي كان يودع فيها الدنيا ، تضع يدنا على تقديره الكامل للمسؤولية التي نيطت بالمثنى ، في مواجهة الفرس ، فهو يعطي للمثنى فوق ما يطلب ، ويرسم سياسة بعيدة ، تتجاوز الموقف الحرج الذي يتعرض له المثنى ، الى المسؤولية الممتدة مع المستقبل ، حيث يأمر عمر أن يرد للعراق من رحل مع خالد ، بعد نهاية معارك الشام حتى يواصلوا الجهاد والكفاح في أرضهم ، في مواجهة أهل فارس فانهم أجرأ على بلادهم وأعرف بعدوهم من غيرهم . ومعنى ذلك كله أن حضور المثنى لدار الخلافة كان أمرا ضروريا ، وأنه في هذه الخطوة السريعة كان عبقريا في قيادته وفي تقديره للموقف ، وفي التقاليد العسكرية النظيفة التي لا تستبد بالرأي ولا تندفع مع الهوى ابتغاء مجد موهوم ينسب الى شخص بطل المعركة ويحوز فخره .

---

(١) الكامل ج ٢ ص ١٧٤
(٢) الكامل ج ٢ ص ١٧٤

ابو بكر يموت وعمر ينفذ وصاياه رضي الله عنهما

يقول ابن الاثير : « ومات أبو بكر ليلا فدفنه عمر وندب الناس مع المثنى » •

لقد كان موقف عمر الخليفة الثاني من المثنى موقف استجابة وتقدير لا يقل عن موقف أبي بكر وينبغي هنا أن نذكر ثلاثة مشاهد تسير كلها في خط واحد •

١ ـ مشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام عرض نفسه على القبائل وهو يعرض على بني شيبان الاسلام وقوله للمثنى بن حارثة نفسه :

« انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه » • يعني بذلك ان يقف المثنى والمسلمون في مواجهة الفرس ، واسداء البشرى له ولقومه بأنهم سيملكون أرض الفرس وديارهم وأموالهم •

٢ ـ ومشهد اللقاء الاول والثاني بين المثنى وأبي بكر وما ترتب عليهما من ارسال خالد للعراق وتوصية أبي بكر لعمر •

٣ ـ مشهد اللقاء بين المثنى وعمر وما ترتب عليه مما سيأتي ذكره •

ثلاثة مشاهد تمضي جميعها في خط واحد ، تمت كلها مع المثنى بن حارثة في شرف لقائه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وخليفتيه رضي الله عنهما وكانت كلها سببا في فتح فارس ، مما يعطينا الابعاد الحقيقية لشخصية المثنى بن حارثة ، ودوره العظيم في فتح فارس على ضوء توجيهات النبي وخلفائه •

تفصيلات عن موقف عمر مع المثنى

يقول ابن الاثير :

« قد ذكرنا قدوم المثنى بن حارثة الشيباني من العراق على أبي بكر ، ووصية أبي بكر عمر بالمبادرة الى ارسال الجيوش معه ، فلما أصبح عمر من الليلة التي مات فيها ابو بكر كان أول ما عمل أن ندب الناس مع المثنى

ابن حارثة الشيباني ، ثم بايع الناس واخذ يندب الناس وهو يبايعهم[1] .

ويلاحظ هنا أن شدة اهتمام عمر جعلته يقدم ندب الناس مع المثنى على بيعته ، ثم يندبهم أثناء البيعة ، وهذا يدلنا على مدى اقتناع عمر بالاستجابة الكاملة التي تبلغ حد ايثار ذلك على الخلافة نفسها في امداد المثنى بما يريد ليستطيع استكمال قدراته في مواجهة دولة الفرس .

المثنى يخطب في اصحاب رسول الله وبينهم عمر (الخليفة الجديد)

للقيادة المطبوعة عبقرية تعطي أثرها في الوقت المناسب ، فقد لاحظ المثنى أن المسلمين لا يستجيبون خفافا الى ما يندبهم اليه عمر ، فدولة الفرس دولة مرهوبة الجانب . وما كان يتصور أحد أن يأتي يوم المواجهة معها سريعا . ولذلك كان الناس مأخوذين بالموقف ، وما ان أحسّ المثنى بتخوف الناس من غزو الفرس حتى تحركت في أعماق نفسه روح الريادة ، وعبقرية التوجيه والتأثير والبعث ، فوقف بين الصحابة خطيبا وفيهم عمر بن الخطاب الخليفة الجديد فقال :

« أيها الناس : لا يعظمنّ عليكم هذا الوجه ، فإنا قد فتحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شِقّيْ السواد ، وأنلنا منهم ، واجترأنا عليهم ، ولنا إن شاء الله ما بعدها »[2] .

ولقد أثرت هذه الكلمات بعد أن تلكأ الكثيرون عن الاستجابة .

يقول ابن الاثير : « وكانوا ــ أي أهل فارس ــ أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها اليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم ، وقهرهم الامم »[3] .

لقد استطاع المثنى أن يغسل من نفوس المسلمين رهبة المواجهة لبلاد الفرس ، ثم عقب عليه عمر بن الخطاب ، فاجتمع الناس وكان أول من أجاب هو أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فقدر له عمر هذا السبق في تلبية

---

(١) الكامل ج ٢ ص ١٨٣
(٢-٣) الكامل ج ٢ ص ١٨١-١٨٢

داعي الجهاد • وتتابع المسلمون وتسابقوا حتى بلغ عدد المتطوعين خمسة آلاف ••• ويحس المثنى بنجاح رحلته الى المدينة ، ولكن ليس لديه وقت للانتظار ، فيسبق الناس ويعود وحده الى جيشه في انتظار تعبئة المدد وارساله وراءه للعراق ، فما يجدر به أن يبقى لحظة دون عمل بعيدا عن جيشه الذي يواجه الخطر أمام الفرس ، ووصل المثنى في الوقت المناسب ، فقد كانت الجيوش الفارسية أفاقت وانتظمت وتولى القيادة العامة عندهم قائد فارس كفء هو رستم ، وكانت خطتهم الثأر من الجيش الاسلامي الذي هزمهم في (بابل) •

مرونة المثنى بين الهجوم والانسحاب وفق مصلحة المسلمين

قدر المثنى موقف جيشه ، واتخذ قرارا بالانسحاب من الحيرة ، وهذا القرار لا يقل أهمية في الكشف عن عبقرية المثنى الحربية عن الانتصارات النهائية ذاتها ، ومن الطبيعي أن نفسح المجال هنا للتخصص يقول رأيه في خطة الانسحاب ودلالتها على روح القيادة الموفقة في المثنى بن حارثة •••

يقول العقيد محمد فرج(1) : « عندما وصل المثنى الى الحيرة ، وجد أن الفرس بدأت تنشط من جديد ، فأعدت جيشين يقودهما رستم ، توجه أحدهما الى الحيرة بقيادة جابان ، والآخر الى أطراف ذي قار في موقع يسمى كسكر بين الفرات ودجلة بقيادة القائد نرس ، وكان رستم قد قام بنشاط بعيد المدى في اثارة مشاعر الفرس ضد المسلمين ، فدعا الدهاقين الى أن يثوروا بالمسلمين ، وأشعل روح القتال عند أهالي المدن ، وأثار أهالي الرساتيق ــ أي القرى ــ ليثيروا القلاقل ضد الجيش الاسلامي ، ولعله بذلك كان يطمع في أن يقطع خط الرجعة على قوات المثنى ، وأن يصيب خطوط مواصلاته فيشل حركته ويمنع مرونة قواته ، وعلم رستم فيما علم أن المثنى قد وصل الى قواته وحده ، وأن جيشا آخر ما زال

---

(1) في كتابه (المثنى بن حارثة) ص ٩٣ـ٩٤

في الطريق ، ولهذا فكر في أن ينتهز الفرس الفرصة فيمحقوا قوات المثنى وحدها قبل أن يصل اليه المدد الـذي على الطريق ، وبذلـك يستطيع ـ أيضا ـ أن ينفرد بالمدد ويقضي عليه عند وصوله ، وهكذا يكون قد قضى على القوات الاسلامية قبـل أن تتاح لها فرصة اللقاء والتجمـع لمواجهتـه .

موقف المثنى

أحسَّ المثنى بالدور المعنوي الكبير الذي قام به رستم حتى استطاع أن يثير مشاعر أهل العراق وعواطفهم ضـد المسلمين ، ووجد أن جنـود رستم قد عبئوا معنويا ، وأنه لا قبـل لجنده بملاقاتهم ، والفرق بـين الجيشين واضح بيِّن ، ولكنه على الرغم من هـذا لم يخش الموقف ، وانما درسه عن عمق وفهم جديرين بعقليته العسكرية الجبارة ، وادراكه السليم للموقف الحربي ومتطلباته ، ولهذا رأى أنه ليس من الحكمة أن يدخل معركة دون أن يكمل حشده ، وليس من الحكمة ان يتوغل في بلاد عدوه فيطيل خطوط مواصلاته بين مواقع جنده وبين قاعدته التي يعتمد عليها ، وبين موقعه الذي يحتله وبين المدد الذي هو في الطريق اليـه . وانتهى تفكيره الى أن يكون أكثر حذرا ، فقرر ان ينسحب من الحيرة الى موضع يسمى (خاقان) حتى لا تفاجئه قوات عدوه فتطعنه من الخلف، وهكذا آثر المثنى أن يبتعد عن وجه عدوه وأن يؤخر لقاءه معه حتى يكمل حشده ، ويتم استعداده للمعركة الفاصلة .

ان المثنى باتخاذه هذه الخطوة يكون قد ضمن أمرين هامين :

الاول : اختيارهُ ميدان المعركة الذي يراه صالحا لان يخوض فيـه معركة النجاح ، فالموقع الذي انسحب اليه يقع على تخوم الصحراء ، والمثنى جندي عربي وجنوده من العرب الذين عاشوا في الصحراء وقضوا حياتهم بين رمالها ، فهم ـ اذن ـ جند مدربون على القتال في الصحراء يعرفون أسرارها ، وفيها يفوقون عدوهم الذي يعيش في أرض كلها حقول ونخيل

ومبان وجداول وأنهار أي أن عدوهم لا يستطيع الحرب في أرض مكشوفة على حين أنهم يجيدون هم هذه الحرب اجادة فائقة .

الثاني : لو فرض ودارت معركة على تخوم الصحراء وكان النصر للفرس فان وجود العرب في الصحراء يمنحهم العمق الاستراتيجي في الانسحاب الى الوراء في الصحراء الواسعة فتقل خسائرهم ويستعيدون تنظيم قواتهم ويتخذون من الصحراء نقطة ارتكاز وتجمع يشنون منها الغارات لاستعادة ما فقدوه ، هذا فوق ان الطريق الى القيادة العامة في المدينة يكون مفتوحا امامهم يستقبلون منه المدد الذي يقوي من عزمهم ، ويشد أزرهم ، ويهيء لهم فرص التقدم في استعدادات تضمن النصر وتؤكده » .

المثنى الجندي المطيع مرة اخرى

عرفنا عن المثنى حين وصول خالد بن الوليد الى أرض العراق مدى حرصه على الطاعة للقيادة العامة والخلافة ، وعرفيا أيضا احترامه الكبير وتقديره العظيم لصحابة رسول الله ، ومرة أخرى يتعرض المثنى لتجربة من هذا النوع تكشف عن صدق معدنه ، وأصالة خلقه ومبادئه وتجرده من نزعات الهوى وحب الذات فقد وصل أبو عبيد بن مسعود الثقفي على رأس المدد المنتظر ، والمثنى في أوج مجده العسكري محافظة على الجيش الاسلامي ، وبعدا به عن مواطن الخطر وتخليصه من كمائن الفرس ، واستعدادا لملاقاة أعدائه .

وصل أبو عبيد ليكون قائدا عاما للجيش كله ، وعاد المثنى بلا أدنى تردد أو حرج ليأخذ مكانه في الصف حيث يضعه قائده الجديد .

موقعة النمارق

إن القائد العام (أبا عبيد) لا يجهل قدر المثنى ، ولذلك وضعه على قيادة الخيل .

يقول ابن الاثير : « بعث ــ رستم القائد العام الفارسي ــ في كل (رستاق)[1] رجلا يؤثر في أهله أي رجلا مقدما لجاهه وحسبه بين الناس ــ فبعث (جابان) الى فرات باذقلي ، وبعث (نرس) الى كسكر ... فثاروا وتوالوا على الخروج ، وخرج أهل الرساتيق[2] من أعلى الفرات الى أسفله .

اجتمع الى (جابان) بشر كثير فنزل (النمارق) وسار اليه (أبو عبيد) فجعل المثنى على الخيل ، وكان على مجنبتي (جابان) (جشنس ماه) و (مروانشاه) فاقتتلوا بالنمارق قتالا شديدا فهزم الله أهل فارس وأسر (جابان) ... وأسر (مروانشاه) وقتل ، وأما جابان فانه خدع ــ آسره ــ مطر بن فضه التيمي وقال له : هل لك أن تؤمنني ، وأعطيك غلامين خفيفين في عملك وكذا وكذا ففعل ــ وهو لا يعرفه أنه جابان ــ فأخذه المسلمون وأتوا به (أبا عبيد) وأخبروه انه جابان واشاروا عليه بقتله فقال : (اني اخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم ، والمسلمون كالجسد الواحد ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم) وتركوه ، وأرسل في طلب المنهزمين حتى أدخلوهم عسكر (نرس) وقتلوا منهم »[3].

هذه الحادثة تعطينا صورة عن تربية الاسلام أبناءه على الوفاء بالعهد وعلى مدى ما بين المسلمين من تماسك وتكافؤ ، وأن غرور الانتصار لا يسيطر لحظة على نفوسهم ، لقد انتصر المسلمون في هذه الموقعة وغنموا غنائم كثيرة ، وقدروا قدرة تامة على خصمهم وهذه الحادثة لون من تصرف المسلمين القادرين .

مشاعر المثنى في موقعة النمارق

ويهمنا كثيرا من هذه الموقعة دلالتها على الروح العظيمة التي يحملها

---

(١) قريـة
(٢) القرى الفارسية
(٣) الكامل ج ٢ ص ١٨٢–١٨٣

قائدنا الكبير (المثنى بن حارثة) حين يعمل كجندي ويتنحى عن مكان القيادة العامة ، فقد جرت العادة أن مثل هذا القائد لا يكون رضيّ النفس مستريح القلب ، لكن الاسلام ربط المثنى بالمبدأ والغاية والرسالة ، فالمهم عنده أن ينتصر المسلمون ولو كانت في يد غيره قيادتهم بعد أن كانت في يده . ولقد كانت فرحة المثنى بالنصر صادقة وأصيلة ، فتغنى به شعرا ، وهش له وأشاد به فقال :

غلبنـــا على (خفان)[1] بيضا[2] مشيحة[3]

إلى النخلات السمـــر فـــوق النمـــارق

وإنـــا لنرجـــو أن تجـــول خيولنــــا

بشاطيء الفـــرات بالسيـــوف البـــوارق

فكل آمال المثنى أن تجول خيول المسلمين على ضفتي النهر في عزة وكرامة وقوة ، وليس كالشعر شيء يفشي بنفس صاحبه ، ولقد أفصح شعر المثنى عن خواطر صاحبه الكبيرة التي لا تدور حول شخص قائلها وإنما تدور حول الغايات الكبيرة العظيمة .

وظل المثنى يخلص النصح لعقيدته وقادته[4] : « فقد بلغت أنبـــاء الهزيمة رستم وعرف الفرس ما حل بجابان فأمر رستم (الجالينوس) وهو من صناديد أبطالهم أن يسرع فيلحق (بنرس) في كسكر ...

وكان المثنى على علم تام ودائم بأخبار الفرس فقد نشر عيونه في كل مكان تأتيه بأخبار الفرس ، أخبار القوات .. تحركاتها .. اتجاهاتها .. خطتها .. قادتها .. معداتها .. وجاءته الانباء أن قوات (نرس) في كسكر ليست كبيرة العدد ، وأن نرس ينتظر وصول نجدات سريعة .. وأسرع المثنى يحمل أنباءه هذه وأخباره عن الفرس الى أبي عبيد ويشير عليـــه

(١) (خفان) مأسدة قرب الكوفة . (٢) (بيضا) سيوفا . (٣) (مشيحة) مقبلة
(٤) المثنى بن حارثة لمحمد فرج ص ١٠٠-١٠١

بالتحرك السريع قبل أن يقوى عدوه ويستجيب أبو عبيد ويأمر قواته بالتحرك .

موقعة السفاطية

وفي مكان يدعى (السفاطية) التقى أبو عبيد بقوات (نرس) — وهو ابن خالة الملك وكان على مجنبتيه (بندويه) و (بترويه) إبنا بسطام خال الملك ومعه أهل باروسيما والزوابي[1] — التقى أبو عبيد بهذه القوات قبل أن تصل اليها قوات الجالينوس ، وكان المثنى على الخيل ، ودارت المعركة بين الطرفين عنيفة حامية ، ثبت لها العرب وانهزم الفرس ولاذ قائدهم نرس بالفرار ، وترك للمسلمين مغانم كثيرة وخزائن وأموالا وأطعمة . ومن طريف ما حدث أن المسلمين غنموا أنواعا من الاطعمة التي كانت خاصة بالملوك والاكاسرة وحدهم فأرسلوا جزءا منها الى المدينة ليراها عمر فيذكر انعام الله وافضاله ووزعوا باقيها على المسلمين والفلاحين من أهل الارض المفتوحة .

موقعة باروسيما أو الجالينوس

في هذه الموقعة قضى المسلمون على قوات (الجالينوس) التي كانت مددا لقوات نرس التي تحطمت وحدها بفضل تفكير المثنى ورأيه ، وأيضا ووجهت هذه القوات وحدها وكان المسلمون ما زالوا على تعبئتهم وقوتهم فالتقوا بأعدائهم في باروسيما وهزموهم هزيمة منكرة ، ولم يجد الجالينوس من تصرف سوى الفرار والهرب ، وصدرت أوامر الى أبي عبيد بمتابعة الفارين وتعقبهم وكان المثنى باعتباره صاحب التخطيط وقائد الخيل في مقدمة المطاردين . فاحتلوا سواد العراق ، وسيطروا على الموقف كما كانت السيطرة أيام خالد . « وجاء الفرس الى المثنى وعرضوا عليه الطاعة

---

(٥) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٨٣

وطلبوا منه الذمة عن باروسيما ونهر حوبر وكان على رأس هؤلاء (فروخ) و (فرونداز) فبعث بهما المثنى الى أبي عبيد الذي صالحهما على شـيء معلـوم[1] .

الى هنا ونحن نعرف للمثنى مجده ونصره وخلقه . ولقد رأينـاه يجتاز تجربة العمل في قمة القيادة والعمل في ساحة الجند ، وعرفناه في كلا الوضعين صاحب قلب كبير وهدف نبيل وغاية واسعة لا تنسيق عند شخصه، لكن التجربة الاقسى والاشد التي كشفت عن صلابة القيادة والفروسية في المثنى وكشفت عن ذروة العبقرية الحربية فيه ، هي ذلك البلاء الشديد الذي تعرض له المسلمون والهزيمة المروعة التي منوا بها ، ونعني بذلك :

معركـة الجسر

يقول ابن الاثير[2] :

« كان عمر رضي الله عنه قد قال لابي عبيد انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة ، تقدم على قـوم تجرأوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخـير فجهلـوه ، فانظر كيـف تكـون ، واحرز لسانـك ، ولا تفشين سرك » .

ولقد صدق تخوف عمر على أبي عبيد من غدر الفرس وخيانتهم ويفصل ابن الاثير ما صنعه الفرس فيقول :

« ولما رجع الجالينوس الى رستم منهزما ومن معه من جنده قال رستم : أي العجم أشد على العرب ؟ قال : بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب ... فوجهه ومعه فيلة . ورد الجالينوس معه ، وقال لبهمن : ان انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه ، فأقبل بهمن جاذويه ومعه (درفش كابيان) راية كسرى وكانت من جلود النمر عرض ثماني أذرع وطول اثني عشر ذراعا ــ ولا ترفع هذه الراية الا لاعظم الامور ولها قداسة في

---

(١) المثنى بن حارثة ص ١٠٢
(٢) الكامل جـ ٢ ص ١٨٣-١٨٤

نفوس الفرس ـ فنزل ـ بهمن ـ (بقس الناطق) وأقبل أبو عبيد فنزل (بالمروحة) ـ ولذلك تسمى وقعة الجسر احيانا بقس الناطق أو بالمروحة نسبة لمكان الفرس والمسلمين ـ ورأت (دومة) زوج أبي عبيد وأم المختار الثقفي ابنه : أن رجلا نزل من السماء بإناء فيه شراب ، فشرب أبو عبيد ومعه نفر ، فأخبرت بها أبا عبيد فقال : لهذه ان شاء الله الشهادة • وعهد الى الناس فقال : ان قتلت فعلى الناس فلان ، فان قتل فعليهم فلان ، حتى أمر الذين شربوا من الاناء ثم قال فان قتل فعلى الناس المثنى بن حارثة » •

الخديعــة والخيانــة

يقول ابن الاثير[1] :

« وبعث اليه بهمن جاذويه ، اما أن تعبر الينا وندعكم والعبور ، واما أن تدعونا نعبر اليكم فنهاه الناس عن العبور •• فترك الرأي وقال : لا يكونون أجرأ على الموت منا ، فعبر اليهم على جسر •• وضاقت الارض بأهلها ، لان الفرس تعمدوا تضييق المسافة حتى لا تتسع للجيش المسلم لمعاجلتهم قبل تمام عبورهم ـ واقتتلوا فلما نظرت الخيول الى الفيلة ، والخيل عليها التجافيف رأت شيئا منكرا لم تكن رأت مثله ، فلم تقدم عليهم واذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرقت خيولهم وكراديسهم ورموهم بالنشاب ، واشتد الامر بالمسلمين ، فترجل أبو عبيد والناس ثم مشوا اليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة الا دفعتهم فنادى أبو عبيد : احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها وأفلتوا عنها اهلها ، ووثب هو على الفيل الابيض فقطع بطانه ، ووقع الذين عليه ، وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلا الا حطوا رحله وقتلوا اصحابه » •

استشهاد ابي عبيد بن مسعود الثقفي

لقد فعل أبو عبيد ورجاله فوق ما يطلب منهم ، لكن الخديعة كانت

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٨٤

اكبر من أن يدفعها جهاد هؤلاء الباذلين • رجال يصارعون الفيلة في مجال ضيق محصور لا يتسع للكر والفر ، من ورائهم النهر وأمامهم عدو غادر عاجلهم عن موعدهم ، فكان لا بد أن تسير الامور على غير ما يحبون •

يقول ابن الاثير[1] :

« وأهوى الفيل لأبي عبيد ، فضربه أبو عبيد بالسيف ، وخبطه الفيل بيده فوقع ، فوطئه الفيل وقام عليه ، فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ثم أخذ اللواء الذي أمره بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد[2] ، فأخذه المسلمون فأحرزوه ثم قتل الفيل الامير الذي بعد أبي عبيد ، وتتابع سبعة أنفس من ثقيف[3] كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت » •

القيادة العامة تعود للمثنى بن حارثة في أسوأ ظرف

وجاء دور المثنى كما حدده أبو عبيد بعد استشهاد هذا العدد من أبطال المسلمين وقوادهم ، وكانت الدائرة قد أحكمت وطأتها على المسلمين، فولوا هاربين نحو الجسر الذي سميت المعركة به ، في هذا الظرف القاسي الرهيب الذي أصاب بالذهول كل بطل تولى المثنى بن حارثة الشيباني قيادة الجيش •

يقول ابن الاثير[4] : « ثم أخذ اللواء المثنى فهرب عنه الناس ، فلما رأى عبد الله بن مرشد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه ، وما يصنع الناس بادرهم الى الجسر فقطعه ، وقال يا ايها الناس موتوا على ما مات عليه امراؤكم أو تظفروا » •

لقد كان هذا التصرف من عبد الله بن مرشد خطأ رهيبا ضاعف من

(١–٢) الكامل ج ٢ ص ١٨٤
(٣) ذكر البلاذري ان هذا الرجل هو اخوه الحكم . (المثنى بن حارثة لمحمد فرج)
(٤) لعل أبا عبيد تقيد في تأميره السبعة واحدا بعد الآخر قبل المثنى بالرؤيا التي راتها زوجه دومة وهذا مع اعترافه بقدر المثنى .

حدة الموقف وشدته وتعقيده ، فقد كان تخطيط المثنى ينحصر في انسحاب المسلمين من هذه المعركة الفاشلة فوق هذا الجسر ، كل ما في الامر أن يكون الانسحاب في نظام ودقة حتى لا يأخذ شكل الهزيمة الساحقة فمع الفوضى والذهول تأتي مضاعفات سيئة لا تخطر على بال . ورغم هـذا التصرف الفردي المفاجيء بقطع الجسر ، لم يرتبك القائد العظيم المثنى بن حارثة ولكنه نظم قوة سريعة تحمي الانسحاب .

يقول ابن الاثير :

« وحاز المشركون المسلمين الى الجسر فتواثب بعضهم الى الفرات فغرق من لم يصبر ، وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس ، وقال : أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا نفوسكم ... ونادى المثنى : من عبر نجا فجاء العمال فعقدوا الجسر ، وعبر الناس — في حماية جملة من الفرسان الاشداء على رأسهم المثنى — وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس[1] ، وعبر المثنى — آخر الناس — فلما عبر انفض عنه اهل المدينة وبقي المثنى في قلة ، وكان قد جرح وأثبت فيه حلق من درعه » .

ونفسح المجال لاحد الخبراء العسكريين ليلقي لنا مزيدا من الضوء على خطة الانسحاب التي رسمها القائد الملهم المثنى بن حارثة ، يقول العقيد محمد فرج : « كانت خطته تقوم على الاسس التالية :

١ — شد الجسر الذي قطعه عبد الله الثقفي واعادته الى مكانه حتى يسمح للقوات باستخدامه في العبور .

٢ — تشكيل قوة ضاربة تقوم بحماية المسلمين ومهاجمة الفرس وتعطيلهم عن متابعة المسلمين أثناء العبور .

(١) كان من راي سليط عدم العبور من اول المعركة لكن ابا عبيد انكر ان يكون في راي سليط جبن او خوف فقال له سليط : « انا والله اجرا منك نفسا ، وقد اشرنا عليك بالراي وستعلم » ، فلما تم العبور ووقعت المعركة كان سليط هذا آخر من انسحب وآخر من قتل رحمه الله .

٣ ـ اعادة تنظيم صفوف المسلمين والسماح لهم بعبـور الجسر بترتيب وانتظام •

٤ ـ عبور القوة الضاربة في النهاية على أن تتولى هذه القوة مهمة منع الفرس من العبور خلف القوات الاسلامية •

٥ ـ الانسحاب الى الحيرة لاعادة تنظيم القوات من جديد استعدادا لمعارك أخرى قادمة •

ووضع المثنى خطته موضع التنفيذ ، فأمر بأن يشد الجسر ، ونادى عروة بن مسعود ، وقال له : « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بينه وبين العجم » ثم أمر بتشكيل القوة الضاربة ، وجعل يقاتل من ورائهم ويحمي ظهورهم على حين اتجهت ـ بتعليماته ـ القوات العربية الى تنظيم صفوفها وترتيب عبورها للجسر الى الضفة الغربية للفرات •

وبينما المثنى يقاوم هجمات الفرس ويوقفها ويضعف موجاتها جاءته طعنة رمح غاصت لها حلقات درعه في جنبه ، وجرح جرحا بليغا ، ولكنه خلال القتال العنيف تناسى جرحه ولم يهتم بالالم وظل يناضل في شجاعة وبطولة حتى عبر المسلمون جميعا الجسر ، ثم عبره هو في النهاية ، وظل بعد عبوره يقاوم الفرس ، ويمنعهم من العبور خلف المسلمين ، ولم يزحزحه عن هدفه وتنفيذ خطته هذا الجرح البالغ الذي أصابه ، وهكذا أنقذ المثنى ببطولته النادرة الجيش المسلم من مخالب الفرس •

ومـا ان نجحت القوات العربية في عبـور النهر حتى أمـر المثنى بالانسحاب فـورا الى الحيرة ، ثـم تابع انحداره الى الجنوب حتـى (أليس)[1] » •

سياسة المثنى الحكيمة

إن اكتشاف شخصية المثنى ليس فقط عن طريق المعركة ذاتها ، وانما

---

(١) المثنى بن حارثة ص ١١٤ــ١١٥

أيضا من جوانب كانت مغمورة في قلب المعركة تكشف عن عبقرية سياسية في القائد العسكري الشجاع حيث يجعل أبناء الوطن الواحد صفا واحدا في الدفاع عن وطنهم مهما اختلفت أديانهم •

يقول ابن الاثير عن معركة الجسر :

« وقاتل أبو زيد الطائي حَمِيَّةً للعربية ، وكان نصرانيا قدم الحيرة لبعض أمره »[1] • وعن هـذا الرجل يقـول العقيد محمـد فرج[2] ، « ولا يفوتنا ان نذكر موقفا لأبي زيد الطائي ، وكان نصرانيا ، فقد كان قادما الى الحيرة في بعض شأنه ، ورأى ما أصاب العرب ، فتحركت فيـه دماؤه العربية ومشاعره القومية ، وهاجت فيه قوميته ، فعز عليه أن ينهزم قومه ، وأن يكتب النصر لقوم يختلفون عنه ، لغة وتاريخا وقومية ومسكنا ودما ، فانحاز الى جانب المثنى ، يقاتل مع العرب قتالا جبارا ، ولقد شجع موقفه هذا قوما من نصارى النمر ، ونصارى بني تغلب ، فخفوا لمعاونة المثنى ، بعد هذه المعركة ، في معركة البويب ، وكان لهم دور كبير فيها » •

ولا شك أن مرد هذا الى نجاح اتصالات المثنى ببني قومه ، وحسن تفهمه وادراكه لروح الاسلام ، وما فيه من مودة وسماحة وتعاون مع كافة المواطنين المحافظين على حقوق أوطانهم •

جيوش الفرس تطارد المثنى بعد موقعة الجسر

أطمعت موقعة الجسر الفرس في المثنى فقد استشهد بها « من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق وهرب الفـان ، وبقي ثلاثـة آلاف »[3] ، وعندما وصل المثنى بمن بقي معه الى (أليس) بدأ على الفور في تنظيـم الجيش واعادة بنائه مع ملاحظة أنه جريح ووصلته انباء مشجعة عن وجود خلاف شديد بين ملوك الفرس أدى الى صدام مسلح بينهم ، وهذا الامر

(١-٢) الكامل ج ٢ ص ١٨٤

(٣) المثنى بن حارثة ص ١١٦-١١٧

شغل بهمن القائد العام الفارسي الذي قال عنه ابن الاثير : « وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه وصاروا فريقين : الفهلوج على رستم ، وأهل فارس على الفيرزان فرجع ـ أي بهمن ـ الى المدائن » .

ويبدوا أن (بهمن) أخفى أخبـار الخلاف الفارسي عن القائديـن الفارسيين (جابان) و (ماردانشاه) وكلفهمـا بمهمة المطاردة للمثنـى وجيشه ، وما ان وصلت طلائع القوات المطاردة حتى كان المثنى قد فرغ من تنظيم جيشه ، وضم اليه عددا كبيرا من أهالي (أليس) وتحرك منهـا لمقابلة القوات المطاردة ، والتقى بها فعلا ودار قتال عنيف، استطاع المثنى به أن يهزم الفرس شر هزيمة ووقع (جابان) و (ماردانشاه) أسيرين ، فأمر المثنى أن تضرب أعناقهما ونفذ الامر بسبب أن المسلمين وقفوا مع (جابان) هذا موقفا كله شهامة ومروءة حين خدع آسره في موقعة النمارق وأطلق سراحه القائد العام أبو عبيد ، ومع ذلك عاد يحارب المسلمين ويناوئهم في حقد لا مبرر له فكان لا بد من قتله .

والخلاصة التي تعنينا من هذه المعركة أنها كشفت عن عبقرية للمثنى تضعه في مصاف المفكرين الممتازين عسكريا وسياسيا ، وتجعلنا نحكم في غير مبالغة ، أن المثنى بن حارثة الشيباني رجل موقفه ، وبطـل معركته ، أيّا كان هذا الموقف ، وكيفما كانت تلك المعركة ، فهو يحسن الافادة من القوة التي تتوافر عنده بأسلوب لا يتسنى لغيره . فاذا تعرض لفقدان ما حوله بدأ من الصفر بسرعة أسطورية مذهلة وعاد الى وضعه . وهـذه العبقرية تبرز الى حيّز التنفيذ بكل دقة من رجل مصاب ، ينكأه جرحـه البليغ في جسده ، ويعتصر قلبـه فقدان الكثير من الابطال الشجعـان أحبابه واخوانه .

انه الاسلام الذي خالط شغاف قلبه ، فتفجرت في فطرته السليمة هذه العبقرية الفذة .

لقد تركت معركة الجسر آثارا عميقة حيث ولّى عدد كبير من المسلمين هاربا لا يلوي على شيء ، وأحرجتهم الهزيمة حتى هام البعض على وجهه لا يستطيع العودة الى المدينة حياء وخجلا مما حدث ، ووصلت هذه الانباء الى عمر فضج ومعه المسلمون في المسجد بالبكاء • وكان عمر بن الخطاب يسأل الرسول الذي بعث به اليه المثنى بن حارثة والناس يبكون ، يسأل عمر : ما عندك يا عبد الله ؟ فيقول : يا أمير المؤمنين أنعي اليك أبا عبيد وأولاده فلانا وفلانا وفلانا وأنعي اليك ••• ويقاطعه الخليفة قائلا : « فالمثنى ؟؟ » قال : تركته جريحا ، ويطرق عمر ويعرف حاجة الاسد الجريح الى مدد سريع وعون عاجل • وعلى الفور يندب الخليفة الناس الى نجدة المثنى بن حارثة ، ويبذل جهدا كبيرا في اقناع الناس حتى يسرعوا بالسفر ، هذا ما كان يحدث في المدينة • أما المثنى فقد « بعث الرسل فيمن يليه من العرب فتوافوا اليه في جمع عظيم[1] •

« وكانت الخطوة التالية للمثنى هي أنه نقل معسكره من (أليس) الى مرج السباخ بين القادسية وخفان ليكون بذلك قريبا من تخوم العرب فيستطيع أن يلجأ اليهم اذا غلبه الفرس ، وأن يجد عندهم المدد اذا تم له النصر •

أما من ناحية الفرس فقد بلغهم أنباء التجمعات الاسلامية وترامت اليهم أخبار الامداد التي تعد بالمدينة ومضت في طريقها الى العراق فعقد رستم اجتماعا مع الفيرزان ، واتفقا على تقسيم السلطة بينهما وجمعا معا جندا عظيما كثيفا جعلا عليه القائد مهران وأمداه بعدد من الفيلة وكانت الملكة الفارسية (بوران) موافقة على رأي رستم والفيرزان وتقدم (مهران) بقواته يريد المسلمين •

بمجرد علم المثنى لخطوات الفرس وكان في نفس الوقت تأكد من

---

(١) الكامل جـ٢ ص١٨٥ ـ وراجع في ذلك البداية والنهاية لابن كثير جـ٧ص٢٩

قرب وصول أمداد المدينة ، أرسل الى أمراء الجند قائلا : « إنّا قد جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا ، فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب »[1] .

تمام اعداد المسلمين والفرس ، وتجنب المثنى لخديعة مهران

يقول ابن الاثير : « وصلت أمداد المسلمين الى المثنى وهو بالبويب ومهران بإزائه من وراء الفرات ، فاجتمع المسلمون بالبويب مما يلي الكوفة اليوم وأرسل مهران الى المثنى يقول : اما أن تعبر الينا واما ان نعبر اليك ؟ فقال المثنى : اعبروا ، فعبر مهران فنزل على شاطيء الفرات ، وعبأ المثنى قواته ، وكان في رمضان فأمرهم بالافطار ليقووا على عدوهم فأفطروا وكان على مجنبتي المثنى بشير بن الخصاصية ويسر بن أبي رهم ، وعلى مجردته المعنّى أخوه ، وعلى الرجل مسعود أخوه وعلى الردء مذعور »[2].

التكامل المادي والمعنوي في اعداد المثنى

من الواضح أن الاسلوب الذي اتبعه المثنى في اعداد الجيش متكامل من جميع الوجوه ، فمن الناحية المادية استوفى لجيشه كل ما يستطيع . فقد أعاد البناء والتنظيم ، واستمد الخلافة فأمدته وبذل نفسه وأهله واخوته غير ضنين . وكان فقيها حين أمر جيشه بالافطار قائلا : « ايها الناس : انكم صوّام ، والصوم مَرَقّة" ومضعفة ، واني أرى من الرأي أن تفطروا فتقووا بالطعام على عدوكم » . وكان هو يستوفي لجيشه أسباب القوة المادية لا يغفل عن القوة المعنوية ينميها ويزكيها في الجنود . سمع جلبة من الاناشيد والزجل صادرا من الجيش الفارسي ، فخشي أن تتأثر نفوس الجندية « فقال المثنى للمسلمين : ان الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت »[3] . وتبدو براعة المثنى في التوجيه المعنوي أولا في أنه

---

(١) الموضع الذي بنيت فيه الكوفة بعدئذ (المثنى بن حارثة ص ١٢٣-١٢٤)
(٢) الكامل ج ٢ ص ١٨٥
(٣) الكامل ج ٢ ص ١٨٥

وصف تصرف الفرس بالفشل ليذهب من نفوس جنده أي رهبة من أصوات الفرس وثانيا في أنه أمر اصحابه بشيء ضد ما يصنعه الفرس حين قال لهم : « فالزموا الصمت » ليؤكد لهم عمليا أن الذي يصنعه الفرس شيء ينبغي اجتنابه لانه يؤدي الى الفشل فينظر اليه المسلمون كعلامة على تحقق النصر لهم . مع أن مقصود الفرس عكس ذلك ، وذروة النجاح للقائد معنويا أن يحول (الحرب النفسية) التي يديرها خصمه ، من سلاح في يد الخصم ، الى سلاح في يده ، وهذا هو ما صنعه المثنى في هذه الحادثة البسيطة .

يقول ابن الاثير :

« وطاف المثنى في صفوفه يعهد اليهم .. يحرضهم ويهزهم .. يقول : اني لارجو أن لا يؤتى الناس من قبلكم اليوم ، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء الا وهو يسرني لعامتكم »

هكذا يخلط المثنى نفسه بجنده ، فيقسم لهم وهو الصادق الثقة عندهم ، انه لا يسره لنفسه شيء ، الا وهو يسره لاي جندي في الجيش ، أي أن كل جندي في الجيش ، يجعله في قلبه وعاطفته مثل نفسه ، ويتأثر الجند ويجيبونه بمثل ذلك . يقول ابن الاثير : « وأنصفهم من نفسه في القول والفعل ، وخلط الناس في المحبوب والمكروه ، فلم يقدر أحد أن يعيب له قولا ولا فعلا »[٢] .

التحام المسلمين والفرس

وقف الجيشان متواجهين وكانت علامة الالتحام التي أعطاها المثنى لجنده هي كلمة « الله أكبر » وكان لهذه الكلمة مدلولها الفعال ومعناها الصادق في نفوس المسلمين آنذاك . ولذلك قال المثنى : « اني مكبر ثلاثا فتهيأوا ثم احملوا في الرابعة »[٢] .

---

(١) الكامل ج ٢ ص ١٨٥
(٢) الكامل ج ٢ ص ١٨٦

« ورأى أحد رجاله يتقدم صفه مندفعا نحو الفرس فقرعه بالرمح وقال له : لا أبا لك ، الزم موقفك فاذا أتاك قِرنُكَ ــ أي خصمك ــ فأغنه عن صاحبك ــ أي تكفل به وحدك دون أن تفرط فتشغل به غيرك من جنود المسلمين ــ ولا تستقتل ــ[1] أي لا تندفع في حركة انتحارية .

لقد آلم الفرس ان تفوتهم فرصة الغدر والخيانة في هذا الالتحام حين رفض المسلمون عبور النهر . فأحبوا أن تكون لهم فرصة المبادأة بالحرب ، لكن (المثنى) علا صوته بالتكبير ، فلم يجد (مهران) قائد الفرس لنفسه أي فرصة الا أن يندفع للحرب ، ولكن مهما اندفع مهران وجيشه فقد فات أوان المباغتة والمفاجأة ، ونجح (المثنى) في دخول المعركة في اللحظة التي يريدها هو ، والتوقيت الذي حدده واختاره وليس الذي يحدده ويختاره عدوه .

قيادة المثنى في المعركة من واقع بعض ملاحظاته

كان المثنى متفقا مع الجند أن يلتحموا مع العدو في التكبيرة الرابعة لكن مهران كما سبق أن ذكرنا اندفع للحرب بعد التكبيرة الاولى مباشرة ، فلاحظ المثنى أن ارتباكا حدث في واحدة من القبائل التي يتكون منها جيش المسلمين فأرسل اليهم من يقول : « الامير يقرئكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم . فقالوا : نعم ، فاعتدلوا فضحك فرحا »[2] .

ولاحظ أيضا أن « القتال طال واشتد فقال المثنى لأنس بن هلال النمري انك امرؤ عربي وان لم تكن على ديننا ، فاذا حملت على مهران فاحمل معي فأجابه » . وكان نتيجة لكسب النصارى الى صفه ان « قتل غلام نصراني من تغلب (مهران) واستوى على فرسه ، فجعل المثنى سلبه

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٩ ــ وجاء فيه فلما كبر اول تكبيرة عاجلتهم الفرس فحملوا عليهم واقتتلوا قتالا شديدا ، ورأى المثنى في بعض صفوفه خللا ، فبعث اليهم رجلا يقول : الامير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : لا تفضحوا العرب اليوم .

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٨٦ والبداية والنهاية .

لصاحب خيله ، وكان التغلبي قد جلب خيلا هو وجماعة من تغلب فلما رأوا القتال قاتلوا مع العرب » • ويدلنا تصرف المثنى في هذه الملاحظة على براعته في توحيد الصف وفي الاستعانة بكل الطاقات والخبرات لانجاح المعركة •

وأثناء المعركة بلغ المثنى أن أخاه مسعودا قد أصيب ولاحظ ان اصابته قد تركت اثرا سيئا على بعض الجند فقال لهم ، اذا رأيتمونا اصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه إلزموا مصافكم وأغنوا عمن يليكم » • ولهذا قال أخوه مسعود حين أصيب : « يا معشر بكر : إرفعوا رايتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعي » •

هذه الامثلة من الملاحظات التي كانت المعركة تتكون من امثالها تضع يدنا على القدرة الفائقة والقوة البالغة في قائدنا العظيم المثنى بن حارثة •

نتيجة المعركة كانت ردا لاعتبار المسلمين

حين استعان المثنى بتغلب ، هاجم بهم وبرجاله مقدمة الجيش الفارسي •

قال ابن الاثير :

« وأفنى المثنى قلب المشركين والمجنبات بعضها يقاتل بعضا فلما رأوه قد أزال القلب وأفنى أهله ، وثب المسلمون على مجنبات المشركين وجعلوا يردون الاعاجم على أدبارهم ، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل اليهم من يدمرهم ويقول لهم (عاداتكم في أمثالهم انصروا الله ينصركم) حتى هزموا الفرس ، وسبقهم المثنى الى الجسر ، وأخذ طريق الاعاجم فافترقوا مصعدين ومنحدرين ، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثا فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها ، وبقيت عظام القتلى ، دهرا طويلا ، وكانوا يحزرون القتلى مائة الف ، وسمي ذلك اليوم الأعشار ، أحصي مائة رجل قتل كل رجل

منهم عشرة ، وتبع المسلمون المشركين الى الليل ، ومن الغد الى الليل »[١].

« ومات أناس من جرحى المسلمين منهم مسعود أخو المثنى فقال المثنى : (والله انه ليهون وجدي أن صبروا وشهدوا البويب ولم ينكلوا) ... وأرسل المثنى الخيل في طلب العجم فبلغوا السيب وغنموا من البقر والسبي وسائر الغنائم شيئا كثيرا فقسم فيهم ونفل أهل البلاد ... وأرسل الذين تبعوا المنهزمين الى المثنى يعرفونه سلامتهم وأنه لا مانع دون القوم ويستأذنونه في الاقدام فأذن لهم فأغاروا حتى بلغوا ساباط ... ثم اجتازوا السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيدا ولا يلقون مانعا »[٢] .

القائد الانسان

يقول ابن الاثير[٣] :

« ندم المثنى على أخذه بالجسر ـ أي انه حال بين المشركين المنهزمين وبين استعمالهم الجسر في الفرار ـ وقال : (عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر حتى أحرجتهم فلا تعودوا أيها الناس الى مثلها فانها كانت زلة ، فلا ينبغي احراج من لا يقوى على امتناع) .

كلمات كبيرة تنبيء عن الروح النبيل ، والهمة العالية ، والمروءة الرفيعة التي لا يسيطر عليها غرور النصر أو حب الانتقام ، وكيف لا يكون المثنى كذلك وقد رأيناه يتمتع بصفات العبقرية في القيادة على أكمل وجه يتيسر للممتازين من الناس وفي مقدمة هذه الصفات :

١ ـ الايمان بالله والمبدأ والتفاني في سبيل نصرة العقيدة .

٢ ـ الثقة بالنفس والاعتزاز بها في غير غرور أو كبر واستبداد .

٣ ـ الفهم العميق الواسع لظروف الاصدقاء والاعداء ، والخبرة التامة في الافادة من الامكانات المتاحة .

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ١٨٦
(٢و٣) الكامل جـ ٢ ص ١٨٦

٤ ــ الواقعية في مواجهة الاحداث ، والمرونة في علاج المواقف •

٥ ــ الطاعة الكاملة للقيادة العليا بالمدينة واحترام صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديمهم •

٦ ــ التضحية والاقدام والشجاعة والبذل في غير تهور أو اندفاع مع حسن التصرف في هذه الصفات واستعمالها في مكانها الصحيح والمناسب•

٧ ــ دماثة الاخلاق ومحبة الجند وكسب ثقتهم وتقديرهم واحترامهم •

بعد الانتصار العظيم في البويب

بعد هذا الانتصار العظيم في البويب لم يشأ المثنى رغم العلة التي به من أثر الجرح في معركة الجسر أن يترك الفرصة لدولة الفرس فجعل يفاجئها هنا وهناك في غارات سريعة متلاحقة فأغار على (الخنافس) وحاز منها غنائم كثيرة ، وأغار على (صفين) ونزل (أليس) وأرسل الى (ميسان) و (دست) وأذكى المسالح ، وأرسل كثيرا من الابطال الى جملة مواضع بالسواد ، وكان قد استخلف على الحيرة بشير بن الخصاصية وقصد المثنى من وراء هذه الحركات التمهيد للقضاء نهائيا على دولة الفرس ، واشعار الفلاحين والجماهير بقوة المسلمين وكان لهذه الغارات نتائج طيبة لان المنطقة كلها أصبحت تحت سلطان المسلمين وأدرك المثنى أن للفرس محاولة يستميتون فيها من جراء ضغط المسلمين عليهم • وبدأ يحس فعلا باستعدادهم فرأى أن يكتب لعمر تقريرا عن الموقف ، ويطلب منه المدد ، وفي نفس الوقت رأى أن يعطي فرصة لقواته فانسحب من المواقع التي سيطر عليها لقربها الشديد من المواجهة الخطيرة المنتظرة ، وعسكر بها قريبا من تخوم الجزيرة العربية حتى يصله من المدينة مدد ، واستجاب عمر للقائد الثقة الكفء فأرسل سعد بن أبي وقاص مددا للمثنى وقال كلمته المشهورة « لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » لكن القدر لم يمهل المثنى بن حارثة حتى يشهد النتائج النهائية التي غرس جذورها ،

وأرسى قواعدها ، ورواها بدمه فقد اشتدت عليه العلة التي لازمته بعد اصابته في معركة الجسر ، وأحس بدنو أجله فاستخلف على الجند بشير بن الخصاصية ورحل الى داره في شراف ، وكتب وصيته لسعد بن ابي وقاص وفيها الخطة التي ينبغي أن يسير عليها سعـد ، وضمَّن هذه الوصيـة لسعد بن أبي وقاص أن يتزوج بعد موته بامرأته سلمى وقد كان ما توقعه المثنى حيث استشهد من علته هذه قبل أن يصل سعد الى القادسية وتسلم سعد الوصية ونفذها بحذافيرها وفي نهاية هذا البحث نضع رأي المؤرخ العالم الدكتور فياض في شخصية المثنى بن حارثة رضي الله عنه وارضاه :

يقول : المثنى بن حارثة قائد من أعظم قواد الاسلام شجاعة وفنا ، وقد كان أعظم قواد المسلمين خبرة بحرب الفرس ، وهو من طراز خالد بن الوليد في رأيه وفنه وتحركاته ، واليه شخصيا يرجع الفضل في بقاء الجيش الاسلامي في العراق بعد موقعة الجسر ، ثم هو من القواد الذين يندر أن تجود بهم الانسانية ، وقد بلغ من انسانيته يوم البويب أن لام نفسه على قطع جسر الفرس فأحرجهم فلم يجدوا طريقا للفرار . وقد وضع قبل موته وصيته لمن يخلفه وقد وضَّح له فيها المنهج الذي يجب السير عليه في حرب فارس وكان ذلك من اسباب النصر النهائي للمسلمين وقد اشترك في فخاره المثنى بعد موته »[1] .

وكانت وفاته في سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة هـ.

ابو عبيد بن مسعود الثقفي

وهذه ترجمة موجزة جـدا لبطلنا أبي عبيد نلحقهـا بالمثنى رضي الله عنـه .

والذي دعانا الى ذلك ان الحديث عن أبي عبيد جاء ضمن الترجمة

---

(١) (الخلفاء الراشدون ص ٢٢٧ــ٢٢٨)

للمثنى ، وكان له دور مهم في ادارة المعارك ، والثبات في الجهاد حتى لقي ربه .

اسمه ونسبه

هو أبو عبيد بن مسعود بن عمر بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف الثقفي(١) .

البيئة التي مهدت لقيادته

هو من ثقيف ، واذا ذكرت ثقيف ذكرت البطولة والسيادة والدهاء والفروسية والشجاعة . ولذلك فقد كان لرجال ثقيف تأثير كبير في نواحي الحياة العربية دينية وسياسية ، ولهم من الامجاد والمواقف ما لا يدخل تحت حصر .

ومعنى ذلك أن ثقيفا بيئة طبيعية لتخريج القادة والابطال .

كيف أختير أبو عبيد قائدا

يظهر أبو عبيد باقدامه وشجاعته من أول موقف كان سببا في اختياره لقيادة الجيش . فقد كان الناس يتهيبون دولة الفرس . وكان المثنى ابن حارثة ينشد المدد من أبي بكر رضي الله عنه بعد جولة خالد التي أدت مهمتها في العراق ، ووسعت أمام المسلمين مجالات المسؤولية في هذه المنطقة بصورة خطيرة ، وجعلت الاحداث تتداعى بالضرورة لتضع المسلمين على خط المواجهة مع فارس . وأوصى أبو بكر وهو على فراش الموت خليفته بقوله : « اني لارجو أن اموت في يومي هذا ، فان انا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ... »

وتوفي أبو بكر رضي الله عنه فلما فرغ عمر من أمره ندب الناس

---

(١) اسد الغابة جـ ٥ ص ٢٤٨

مع المثنى قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر ثم أصبح فبايع الناس ، ولما فرغ من أمر البيعة عاد فندب الناس الى فارس •

كان الناس قد وقر في قلوبهم عظم ملك الفرس وقوة شوكتهم وظفرهم في الحروب الجاهلية فاثاقلوا ، وما زال عمر يندب الناس الى اليوم الرابع فكان اول من لبى النداء أبو عبيد بن مسعود الثقفي(١) ، كما ذكرنا ذلك بالتفصيل في ترجمة المثنى •

وهكذا كان أبو عبيد أول من حطم عنصر الرهبة والخوف من المواجهة لفارس وتتابع الناس بعده •

حفظ عمر هذا الموقف لهذا البطل الثقفي • فلما اجتمع البعث قيل لعمر :

« أمِّرْ عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين أو الانصار فقال : « والله لا أفعل ، ان الله انما رفعكم بسيفكم وسرعتكم الى العدو ، فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع واجاب الى الدعاء ، والله لا أؤمّر عليهم الا أولهم انتدابا ••• فأمَّر أبا عبيد على الجيش وقال له : « اسمع من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واشركهم في الامر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب ، والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكفء »(٢) •

المعارك التي خاضها أبو عبيد ضد الفرس

خرج أبو عبيد من المدينة وتحت قيادته خمسة آلاف من المجاهدين فيهم جماعة من الصحابة ممن شهد بدرا • وفي الطريق انضم اليه كثيرون فانه كان لا يمر بقوم من العرب الا رغبهم في الجهاد والغنيمة ، وحثهم على

---

(١) الخلفاء الراشدون للنجار ص ١١٦–١١٧
(٢) الخلفاء الراشدون ص ١١٧ للنجار

القتال في سبيل الله ... وعندما بلغ حدود العراق كان تحت امرته عشرة آلاف مقاتل[1] .

وخاض بهذا الجيش أربع معارك :

١ ـ موقعة النمارق .

٢ ـ موقعة السفاطية .

٣ ـ موقعة باروسيما .

٤ ـ موقعة الجسر .

وقد أشرنا اليها كلها فيما مضى . ونضيف هنا أنه كان لابي عبيد دور عظيم في انتصار المسلمين .

استشهاد أبي عبيد

وفي موقعة الجسر كانت نهاية البطل الانسان أروع صورة من صور الاقدام والتضحية والاستهانة بالموت في سبيل الغاية وشرف المبدأ ، فقد غاظ الفرس أن تتلاحق انتصارات المسلمين فعبأوا أنفسهم ماديا ومعنويا وعددا وعدة ثم احتالوا حتى خدعوا المسلمين بمسألة عبور الجسر .

وسيطرت على أبي عبيد فكرة خطيرة ملكت عليه كل أقطار نفسه ، وهي أن نكول المسلمين عن عبور الجسر يمثل حادثة سيئة مؤداها ان الجيش المؤمن يفقد عنصر الشجاعة . ومع أن جميع القواد الذين كانوا معه نصحوه بعدم العبور خوفا من غدر الفرس الا أنه أصدر أوامره بضرورة العبور . وأثناء العبور كانت الخيانة والغدر من جانب الفرس ، فلم يمهلوا الجيش المسلم حتى يعبر كما هو الاتفاق ، لكن أبا عبيد ثبت بجنده ثبات الجبال ، ورأى أبو عبيد أنه مسؤول عن ازالة العقبات من أمام المسلمين فعمد الى فيل ضخم كان الفرس يمزقون به صفوف المسلمين فتفزع منه الخيول . فقاتل الفيل قتالا شديدا حتى قطع خرطومه فخبطه

---

(٢) اعلام العرب ج ٣١ ص ٩٦ـ٩٧

الفيل خبطة قاضية فوقع شهيدا . ولما رأى المسلمون مقتل قائدهم انهزموا وبدأوا في التراجع فعمد الى الجسر رجل من ثقيف فقطعه حتى لا يكون أمام المسلمين الا الثبات في الموقف والصبر على القتـال حتى الموت أو النصر ، لكن هذا التصرف كان خطأ شديدا أدى الى تمام النكسة وشدتها على الجيش المسلم .

وهكذا دفع أبو عبيد حياته محاولا انقاذ المسلمين من هذه المعركة الحاسمة لكن القضاء غالب لا يستطيع أحد أن يغير من قدر الله شيئا .

رحم الله أبا عبيد فقد كان قائدا ممتازا ورائعا ، وما صرعه الا تشبثه بعالم الفضائل والمثاليات في جو من الخديعة والخيانة والغدر . فكان درسا لمن بعده من القواد .

انه كان صاحب نفس ممتلئة بمعنى المسؤولية عن الجنود وهي روح القيادة ، وجوهرها الذي يخلق الرضا بالفداء والتضحية عنـد الجنود ، ويملأ قلوبهم بحب قائدهم وتقديره وطاعته .

فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الثمن ١٧٥ ق. ل.